يـــــس

روايـة

أَحمد أَبو سليم

الإهداء:

إلى شهداء دير ياسين، ومن يسيرون الآن عائدين إلى فلسطين.

الفصل الأَوَّل: المجزرة

هل يمكن للذَّاكرة أَن تصاب بالصَّدأ، وتهترئ؟

هل يمكن أَن تُثقب، فتسيل منها الذِّكريات دون أَن نشعر بذلك، لنجد أَنفسنا فجأَة أَمام بياض أَعمى يُسمَّى النِّسيان، وذاكرة فارغة مثل قوقعة هجرتها سلحفاتها؟ وماذا يعني النِّسيانُ بالضَّبط؟ هل هو لا إراديٌّ أَم إنَّ الذَّاكرة انتقائيَّة تخزِّن أَحداثاً بعينها، تراكمها، لتشكِّل فيما بعد حقيقة هويَّتنا، وتعطينا تلك الملامح الَّتي تجعلنا نشبهنا؟

المجزرة، الدونيَّة والنَّقص، الحزن، الذِّكريات المؤلمة، الفراغ، الجوع، البرد، القمل، الأَسى، طوابير الماء، والمؤن، وقدم أُمِّي الخشبيَّة، كلُّها لم تكن أَشياء يمكن لأُمِّي أَن تعلِّقها على الجدار، أَمام أَعيننا، مثل المفتاح، لكنَّها كانت معلَّقة هناك، على جدران الذَّاكرة لا تبرحها أَبداً، وكان وجودها أَشدَّ وطأَة عليَّ، وارتباطي بها أَقوى من ارتباطي بمفتاح قديم علاه الصَّدأُ، ظلَّ معلَّقاً وحده في نهاية المطاف على الجدار في صدر غرفة الجلوس بعد أَن تحرَّرتُ من كلِّ شيء في البيت، ومن نفسي، قبل أَن أُلقي به أَخيراً من فوق السُّور إلى الشَّارع.

أَنا تحرَّرتُ من نفسي، وما تبقَّى الآن، ربَّما، أَن تتحرَّر نفسي منِّي.

ولدتُ قبل المجزرة بثمانية أَيَّام، في الأَوَّل من نيسان، عام **1948**، لذا ربَّما كانت حياتي مجرَّد كذبة متواصلة لا تتوقَّف، كذبة نيسان.

يوماً ما، ثمَّة من سيعيد كتابة التَّاريخ بحروف أُخرى، سيكتب أَنَّهم لو أَعطوا عبد القادر الحسينيَّ السِّلاح لما سقطت القسطل، ولو لم تسقط القسطل ما سقطت دير ياسين، ولو لم تسقط دير ياسين، لما سقطت فلسطين بذلك الشَّكل المذلِّ المهين.

عاد عبد القادر الحسينيُّ من دمشق خاوي الوفاض، قال لهم إنَّ التَّاريخ لا يرحم الخونة، وإنَّهم سيكونون مسؤولين أَمام التَّاريخ عن ضياع فلسطين.

استُشهد في القسطل، وفي اليوم التَّالي، التَّاسع من نيسان، عام **1948**، يوم الجمعة، وقبل أَن يُدفن، كان اليهود يتدفَّقون إلى دير ياسين.

كيف بوسع الذَّاكرة أَن تحتمل هول المجزرة دون أَن تنفجر؟ كيف خزَّنت في ثناياها كلَّ ذلك الأَلم والموت، ثمَّ عادت بعد ذلك لتنبض من جديد؟ وتتناسى؟ وتهضم ما يمكن هضمه وتعود مثل أَيِّ ذاكرة في الكون، تجترُّ الماضي ببراءة على أَنَّه صور لا أَكثر، تجرِّده من تفاصيله، وتستعرضه مثل صورة جامدة التقطتها كاميرا لا تشي بحقيقة ما كان حولها لحظة التقاطها؟.

هل بوسع الصُّور أَن تحتفظ بحرارة بالمشاعر؟

أَسوأُ ما في صور الأَبيض والأَسود أَنَّها عاجزة عن استيعاب لون الدِّماء.

هل امتلأَت الذَّاكرة؟ هل فاضت بما فيها من أَشلاء؟ ما الفرق بين صورة وحش يفترس الضحيَّة، وصورة الشَّجرة الَّتي تظلِّله لحظة افتراسها، وتقف مثل شاهدة القبر؟ كلَّما شعرت باكتظاظ في الذَّاكرة شعرتُ بقوَّة هائلة تضغط جدران رأسي من الدَّاخل فيكاد ينفجر.

كنتُ طفلاً فقط، ولم يكن لي ذاكرة آنذاك، ربَّما خزَّنت عيناي في مكان ما، في أَعماقهما ما يمكن اجتراره فيما بعدُ، لماذا كلَّما استرسلت أُمِّي في الحديث عن المجزرة شعرتُ بأَنَّني عشتها لحظة لحظة، وبدا لي الأَمر ذكريات لا خيالات؟

تنهض مفزوعة في اللَّيل وهي تصرخ، يهبُّ جدِّي من نومه ليهدِّئ من روعها، يسقيها ماء، تستعيذ بالله وتقرأُ بعض الآيات القصيرة على عجل، وكأَنَّها تحاول طرد ما تبقَّى فيها من بقايا الكابوس بالقرآن، كانت المجزرة تعيش فيها، أَفهم أَنَّها تعيش فيها، وكانت هي أَحياناً تكابر، أَفهم أَنَّها كانت تكابر، كنَّا نعيش المجزرة معاً، كلَّ يوم، نعود إليها، أَو تعود هي إلينا، تصحو فينا، أَو نصحو نحن فيها، هناك، في دير ياسين، نسمع أَصوات الرَّصاص، والإنفجارات، وصرخات الجنود بالعبريَّة، ونرى الشُّهداء ينبتون في العتمة على الجدران، نجترها، أَو هي تجترُّنا، في اللَّيل، في جوف اللَّيل، في العتمة، في منتصف العتمة، كان ذلك قبل أَن تصل الكهرباء إلى المخيَّم.

نحن عاجزون عن نسيان ما نريد أَن ننساه.

أَدفن رأسي في العتمة، أُغمض عينيَّ لكنِّي لا أَنام، أَلتصق بها، أَطوي ذراعي على جسدها الدَّافئ لكنِّي لا أَشعر بالطمأنينة، هي أَيضاً عاجزة مثلي، ماذا لو عادوا الآن وكسروا الباب؟ ماذا لو تذكَّر جنديٌّ ما أَنَّه نسينا في خضمِّ انشغاله بالقتل، فعاد كي ينجز تلك المهمَّة إلى هنا، إلى المخيَّم؟

أَدفن رأسي في العتمة، أَدخل القرية حذراً من جهة "الكبَّانيَّات": غفعت شاؤول، مونتفيوري، بيت هكيرم، شخونات هبوعليم، يفينوف، بيت فيغان، من تلك الطَّريق الَّتي حفروا فيها خندقاً عمقه متران قبل المجزرة بأَيَّام، كي يمنعوا أَيَّة آليَّات من التقدُّم إلى داخل القرية، أَستعرض الكسَّارات، والمحاجر، أَصعد لاهثاً، أَمرُّ ببيوت زهران، وعيد، أَصعد نحو بئر الجوزة، حيث بيت يوسف أحمد عليا، وأَولاده أَحمد ومحمَّد وعلي، ثمَّ أُحدِّق إلى بيوت سمُّور، وأَعبر من أَمام الحارة، من أَمام بيوت عيد، وعطيَّة، وأَصل في نهاية المطاف إلى المسجد....

كانت بيوتنا حسب وصف أُمِّي تقع مقابل المسجد تماماً، بين المسجد ومدرسة الإناث المحاذية لبيت إسماعيل عطيَّة، إلى يسار الحارة، في القسم الجنوبيِّ من البلدة، وكانت تطلُّ على الوادي، ستَّة بيوت لجديَّ الشَّقيقين، وأَولادهم.

صار بوسعي أَن أُعدِّد أَسماء من ماتوا، ومن نجوا، وصرتُ أَعرف الطَّريق جيِّداً، لا أَتوه فيها، وأَتذكَّر مواقع البيوت، والأَشجار، والحارة، والسَّاحة الَّتي يقف فيها باص لفتا، وموقع الفرن، والمسجد، ومدرسة الذُّكور، والإناث، والبئر، والمقبرة.

في الرَّابعة والنِّصف صباحاً بدأَتِ المجزرة، وتداخل كلُّ شيء في كلِّ شيء، حتَّى لم يعد بوسع أَحد استيعاب ما يجري حوله.

ما الفرق بين القرية والمجزرة؟ ما الفرق؟ ولماذا كلَّما ذُكرتْ دير ياسين، تذكَّرنا المجزرة فقط، ولا نتذكَّر شيئاً آخر؟

لماذا لا نتذكَّر أَطلال الدَّير، وخربة عين التُّوت، والمسجد الَّذي يقع بجانب أَطلال الدَّير، وضريح الشَّيخ ياسين فيه، جدِّ جدِّ جدِّي، وكراماته، يوم اعتزل قبل مئات السَّنوات في ذلك السَّفح، وصار النَّاس يأتونه من القدس حاملين الهدايا، من أَجل

طلب الشِّفاء، حتَّى ورث أَجدادي ذلك الأَمر عنه، وأَصبح لهم كرامات وصلت إلى جدِّي عبد القادر الَّذي كان النَّاس يأتونه هو الآخر من كلِّ صوب كي يمسح بكفِّه على مرضاهم، ويقرأَ عليهم القرآن فيُشفَوا؟

لماذا لا نتذكَّر الحيطان القديمة، والقناطر، والخزَّانات، والقبور الَّتي مضى على أَصحابها هناك آلاف السَّنوات؟

لماذا لا نتذكَّر شجرة السَّرو المعمَّرة في المقبرة، وأَشجار اللَّوز، والتِّين، والزَّيتون؟ البساتين؟ المحاجر؟ نبعي الماء؟ لماذا أَصبحت البئر صورة لقبر فقط، وما عادت بئراً؟ كيف تحوَّلت الذَّاكرة بتلك الطَّريقة المدهشة؟ وهل كان تحوُّلها مقصوداً؟ كيف تصبح اللَّحظة حالة تلبس الواقع كلَّه حتَّى تمحو ملامحه تماماً، وتصبح هي الملمح الوحيد الَّذي لا نرى سواه؟ كيف تتداخل فيه وتتماهى إلى تلك الدَّرجة الَّتي تنفي كلَّ شيء سواها؟

هل يمكن أَن تكون الذَّاكرة انتقائيَّة إلى تلك الدَّرجة، أَم إنَّ الأَمر يصبح أَبعد من انتقائيَّة الذَّاكرة حين تحفر يدٌ ما بمسمار عليها ما لا تريد لها أَن تنساه؟ أَو ربَّما نكون نحن من يفعل ذلك؟ ربَّما يكون الأَمر مرتبطاً بالنِّهايات، فالمجزرة كانت نهاية من نوع ما، ستاراً أُسدل على تاريخ طويل، ليبدأَ بعده تاريخ جديد، وكنتُ أَنا بعض ذلك التَّاريخ بالذَّات.

لم تشفع لجدِّي كراماته.

سأَعرف فيما بعد، بعد سنوات طويلة، أَنَّ تلك كانت مجموعة يهودا سيفل، انطلقت من بيت هكيرم، وعبرتِ الوادي، وتسلَّقت السَّفح حتَّى وصلت إلى المسجد.

- هذا بيت الله، ولا يجوز لكم اقتحامه بأَحذيتكم، وأَسلحتكم...قال جدِّي.
- دع الله ينقذك من الموت إذن، ما دام هذا بيته....قال له أَحد الجنود وهو يطلق عليه النَّار.

كان ذلك مع بداية اكتشاف تلك المجموعة من قبل الحرَّاس المسلَّحين الَّذين كانوا يحرسون القرية أَثناء اللَّيل.

في اللَّحظة الَّتي اكتشف فيها محمود عطيَّة وجود اليهود في القرية أَطلق النَّار من بندقيَّته، وانطلقت شرارة الحرب، أَعني حرب عام 1948، كانت دير ياسين بداية البداية.

بدا كلُّ شيء ضبابيَّاً في البداية، ولم يكن ثمَّة من بوسعه أَن يستوعب ما يجري، دخلوا القرية من ثلاث جهات، والجهة الغربيَّة المؤدِّية إلى عين كارم ظلَّت مفتوحة، لا لشيء إلاَّ لأَنَّ المجموعة الرَّابعة الَّتي كانت مكلَّفة بمهاجمة القرية من الجهة الجنوبيَّة الغربيَّة فشلت في بداية الأَمر في الوصول إلى أَعالي القرية الغربيَّة بسبب المقاومة الشَّديدة.

لم يكن ثمَّة من يفهم آليَّة الهجوم، وشكله، وجَدَ جدِّي نفسه فجأَة وجهاً لوجه مع مجموعة من المقاتلين اليهود، فلم يستوعب الأَمر.

كان أَذان الفجر يومذاك آخر أَذان يعلو في سماء القرية، ولم يجد أَحد وقتاً للصَّلاة.

ستظلُّ ماثلة في ذهني دائماً، وأَنا أُعيد في رأسي ذلك اليوم، أَجترُّه مرَّة بعد مرَّة، وصورة بعد صورة، ميدوزا الَّتي تحوَّل شعرها إلى ثعابين، وكان كلُّ من ينظر في عينيها يتحوَّل إلى حجر.

الفرق بين الذِّئب والحيوانات المفترسة الأُخرى، أَنَّ الذِّئب وحده هو من يقتل من أَجل القتل، من أَجل شهوة القتل، يهاجم القطيع، يمزِّقه بأَنيابه، لا يبقي شاة واحدة على قيد الحياة، ثمَّ في نهاية المطاف يختار شاة واحدة كي تكون طعامه.

كيف يتحوَّل البشر إلى قطيع من الذِّئاب؟ وكيف يصبح القتل لذَّة لا تُقاوَم؟

انفجر كلُّ شيء دفعة واحدة.

كلمة السرِّ للهجوم كانت " أَحدوت" ، وإجابتها: "لوحميت"*، وحين سمع أَحد الجنود

---

*أحدوت تعني وحدة، ولوحميت تعني قتاليَّة في اللُّغة العبريَّة- المصدر "دير ياسين" للمؤرِّخ الفلسطينيِّ وليد الخالدي-مؤسَّسة الدِّراسات الفلسطينيَّة-بيروت-نيسان-1999م.

اليهود صوتاً ما، ينادي على محمود، ظنَّ خاطئاً أَنَّها كلمة السرِّ، "أَحدوت" فأَجابه: لوحميت، سمع محمود صوت اليهوديِّ، واكتشف في لحظة أَنَّهم يتسلَّلون إلى القرية، فأَطلق النَّار، وهو يصرخ: اليهود، اليهود.

قدَّموا موعد الهجوم ساعة بعد اكتشاف وجودهم، أَطلقوا قنبلة الإنارة إعلاناً عن بدء الهجوم فانتشرت المجموعة الَّتي كانت قد وصلت عبر الوادي وسط القرية، انتشرت فيها كالجراد، وأَصبحوا بين البيوت، في الوقت الَّذي كان حرَّاس القرية ينتظرون الهجوم على أَطرافها الشَّرقيَّة، قرب الطَّريق الرَّئيسيِّ المؤدِّي إلى القدس.

لم يفهم أُولئك المرابطون على أَطراف القرية، جهة الكبَّانيَّات، ما يجري فيها، أَرسلوا من يستطلع الأَمر، لكنَّهم بعد دقائق اكتشفوا مجموعة أُخرى تحاول التسلُّل من تلك الجهة، فاشتبكوا معها.

كانت الخطَّة تقضي بمحاصرة القرية تماماً من كلِّ الجهات، وإبادتها بكلِّ من فيها، ببشرها، ودوابِّها، وطيورها، وحشراتها، وكلِّ ما يتنفَّس فيها، كانت جزءاً من عمليَّة "نحشون"* الَّتي خطَّطت لها الهاغاناه، لذا انقسم المهاجمون إلى أَربع مجموعات.

الأُولى بقيادة مردخاي بن غوزيهو تهاجم من الشَّمال، باتِّجاه تقاطع الطَّريق الواصلة بين دير ياسين، وغفعات شاؤول مع الطَّريق القادمة من الشَّمال باتِّجاه الجنوب، والَّتي تذهب باتِّجاه الحارة.

والثَّانية تهاجم مع مصفَّحة ثُبِّت إليها مكبِّر صوت، بقيادة منشه آيخلر من الشَّرق، من جفعات شاؤول أَيضاً، عبر الطَّريق الرَّئيسيِّ وتندفع نحو وسط القرية.

والثَّالثة بقيادة يهودا سيفل، تنطلق من بيت هكيرم، وتهبط في الوادي وتتسلَّق السَّفح من الجهة الشَّرقيَّة–الجنوبيَّة، جهة المسجد، وتتَّجه نحو الحارة.

والرَّابعة بقيادة يهودا لبيدوت، تنطلق من بيت هكيرم أَيضاً، وتلتفُّ حول القرية،

---

*عمليَّة نحشون: جزء من الخطَّة"د" هدفت إلى احتلال وتدمير القرى الفلسطينيَّة، على امتداد الطَّريق الواصل بين يافا والقدس.

تهاجمها من الجهة الجنوبيَّة الغربيَّة، وتسيطر على أَعاليها من الجهة الشَّماليَّة الغربيَّة، لتمنع أَيَّ تواصل مع عين كارم، ولتشرف على كلِّ ما يدور داخل القرية، وتحكم إغلاق الطَّوق عليها.

بعض المهاجمين من جهة المسجد علقوا خلف البوَّابة المعدنيَّة الكبيرة الَّتي تطلُّ على السَّاحة الغربيَّة، وتفضي إلى الوادي، بعد أَن انتبه الحاج اسماعيل عطيَّة وأَولاده لما يجري، وبعضُ البيوت المجاورة، وفتحوا النَّار عليهم من بيوتهم الَّتي تشرف على الوادي، وأَرغموا الكثيرين على الهبوط إلى الأَسفل ، لكنَّ جزءاً منهم كان قد عبر إلى داخل القرية.

منهم من دخل المسجد، ومنهم من اندفع بين البيوت، ومنهم من ذهب باتِّجاه الفرن المحاذي لبيت المختار محمَّد سحور.

في الفرن كان عبد الرَّؤوف، ابن أَبي حسني صاحب الفرن أَوَّل ضحايا المجزرة.

بالكاد كان لهيب نار الفرن قد اشتدَّ حين اقتحموه، أَلقوا بعبد الرَّؤوف في بيت النَّار وهو يصرخ، ويبكي، ويستنجد، وأَبوه يحاول أَن يدافع عنه، تركوه يحترق أَمام عيني أَبيه، وأَربع نساء جئن مبكِّراً لخبز عجينهنَّ.

رائحة لحمه المشويِّ عبَّقت داخل الفرن، مع الدُّخان، وصراخه بقي على الجدران يسيل ببطء، ويتجمَّع شيئاً فشيئاً على الأَرض، ويعود ليسيل نحو حفرة الفرن الواقعة أَمام بيت النَّار، يتجمَّع فيها.

أَبوه جنَّ، راح يلطم على رأسه بكفَّيه، اندفع نحو جثَّته، لكنَّهم قتلوه، أَصابوه بثلاث رصاصات في ظهره.

النِّساء الأَربع كانت أَقدامهنَّ قد تجمَّدت في الأَرض، أَصبحت حجارة لا تتحرَّك، رحن يتوسَّلن وهنَّ يصرخن ويبكين، واحدة منهنَّ استطاعت أَن تتغلَّب أَخيراً على خوفها، وتطلق ساقيها للرِّيح، والأُخريات حصدوهنَّ بالرَّصاص، فتكوَّمن أَمام مدخل الفرن.

المجموعة الرَّابعة الَّتي كان عليها الالتفاف من أَجل إغلاق الطَّريق الغربيَّة، فوجئت بنيران مجموعة من المقاتلين المتمترسين في بيت علي قاسم، وأَجبرتهم على النُّزول

من جديد إلى الوادي، ما أَفشل خطَّتهم بإغلاق القرية جهة الغرب، والمجموعة الثَّالثة احتلَّت مدرسة الذُّكور شرق القرية، جهة المحاجر، واشتبكت مع المقاتلين المتمترسين على تلَّة تشرف على الطَّريق الرئيسيَّة، قرب كسَّارة سمُّور، فتعثَّر تقدُّمها، والمجموعة الرَّابعة اصطدمت بالخندق، الَّذي حاول المهاجمون ردمه من أَجل مرور المصفَّحة، فاشتبك معها المقاتلون المتمترسون في بيت أَحمد رضوان الَّذي يشرف على الخندق.

لا أَحد بوسعه أَن يفهم ما يدور بالضَّبط، اختلطت الأَحداث، واختلط الهجوم، والدِّفاع، وتداخل كلُّ شيء بكلِّ شيء.

كان منزل الشَّيخ محمود صلاح يقع في أَقصى شمال القرية، في أَعلى نقطة فيها، يشرف على كلِّ الجهات، وقد تمترست فيه مجموعة راحت تطلق النَّار على المجموعات المهاجمة من كلِّ جهة، وحين سقط البيت بعد الظُّهر، رفعوا عليه علم "إسرائيل" ليراه الجميع.

في الحارة، وسط القرية، بين البيوت، كانوا يقتلون كلَّ ما يتنفَّس، أَو يتحرَّك.

النِّساء كنَّ قد أَغلقن أَبواب بيوتهنَّ عليهنَّ، مع أَطفالهنَّ، والرُّعب يسيطر على الجميع، وبعضهنَّ يسترقن النَّظر عبر النَّوافذ وثقوب الأَبواب لاستطلاع ما يجري في الخارج.

أَخرجوا آل زيدان من بيوتهم، وجعلوهم يصطفُّون أَمام الجدار، وقتلوهم جميعاً.

راحوا يلقون بالقنابل عبر النَّوافذ، والطَّاقات، وحيناً يهاجمون الأَبواب، يحطِّمونها، ثمَّ يلقون بالقنابل إلى الدَّاخل، فتحوَّل كلَّ من في البيوت إلى أَشلاء: نساء، ورجال، وأَطفال.

الحاج جابر، أَلقوا به من أَعلى المنزل، حملوه مع فراشه وأَلقوا به إلى الأَسفل، فوق سقف البئر، فسقط جثَّة هامدة، ورفعوا فوق بيته علم "النَّصر".

وفؤاد ابن مغربيَّة، العريس الجديد، الَّذي لم يكن قد مرَّ شهران على زواجه ذبحوه على ركبة أُمِّه، وعمُّه محمود معزوزة، الضَّرير، ذبحوه أَمام عينيها أَيضاً، فخرجت تولول وتصرخ إلى الحارة، وثيابها ملطَّخة بالدِّماء، كانت قد جُنَّت.

وزينب ابنة محمَّد زهران، وزينب زوجة حفيده، كلتاهما كانت حاملاً في شهرها الثَّامن، شقُّوا بطنيهما وهم يتراهنون على جنس المولود، وحين حاولت امرأَة أَن تنقذ ما في بطنيهما، أَردوها قتيلة بالرَّصاص.

وزينب عطيَّة، أَلقوا بقنبلة داخل بيتها، فأُصيبت هي وأَولادها، وبناتها، ثمَّ كسروا عليهم الباب، وأَخرجوهم، سحبوا شقيقها موسى الصَّغير، وراحوا يضربونه بلا رحمة، راحت تتوسَّل إلى من ظنَّت أَنَّه المسؤول فيهم كي لا يقتله، أَخرجت كلَّ ما تملك، مئتين وخمسين جنيهاً من صدرها، سلَّمتها له وهي تبكي، وتصرخ، وتتوسَّل، طبطب على ظهرها بعد أَن وضع النُّقود في جيبه، دفع شقيقها فسقط ساجداً على الأَرض، وضع فوَّهة المسدَّس في رأسه، وقتله، أَطلق على رأسه خمس رصاصات، فتناثر ما في رأسه فوق وجهها....وثيابها.

فقدت عقلها تماماً، حاولت أَن تلقي بنفسها في البئر فمنعوها، قال لها الجنديُّ إنَّ مئتين وخمسين جنيهاً كفيلة بإنقاذ حياتها فقط، وأَولادها وبناتها الأَطفال حولها يصرخون، مريم ابنتها الَّتي كان عمرها أَربع سنوات، والَّتي كانت قد أَصابتها القنبلة الَّتي أَلقوها داخل المنزل في قدمها، تحاملت على جراحها، وفرَّت هاربة إلى منزل جدِّها، هرعت إلى زوجة جدِّها سارة الممدَّدة أَمام الباب وهي تصعد الدَّرج وتصرخ: خبِّئيني يا جدَّتي، خبِّئيني، وحين وصلتها وجدتها جثَّة هامدة، غارقة بدمها.

مريم....والذِّئب.

ليلى....والذِّئب.

مريم....واليهود.

زينب والذِّئب...

ياسمين والذِّئب...

رقيَّة...والذِّئب.

حلوة زيدان والذِّئب!

كلُّهنَّ كنَّ في الغابة ويوشع يمزِّقهنَّ بأَنيابه، يستعيد أَريحا من أَريحا، وأُورشليم من أُورشليم.

فوضى في الطَّريق إلى السَّماء، فوضى الأَرواح تفرُّ من أَجسادها، تتدافع في سماء القرية وهي تصرخ من جنون المذبحة.

سبعة وعشرون من آل زهران، سبعة وعشرون دفعة واحدة، كانت أَرواحهم تتدافع هاربة من النَّافذة وكنتُ أَراها في عتمتي، تحت الغطاء، كان ذلك قبل دخول الكهرباء إلى المخيَّم، كانت تتزاحم، يصطدم بعضها ببعض، لم تكن قد فهمتْ بعد ما جرى، وأَنَّ الأَجساد ظلَّت ممدَّدة خلفها بلا حراك، داخل البيت، والأَشلاء اختلطت بالأَشلاء، سبعة وعشرون قتلوا، أَطفال، ونساء، ورجال، ثمَّ عادت أَرواحهم تتدافع إلى الدَّاخل، وراح كلٌّ منها يبحث عن أَشلائه، يلملم بعضها على بعض كي تتعرَّف الرُّوح إلى ملامح الجسد يوم القيامة، كي لا يضيع منها، ويتلاشى في الفراغ الكونيِّ في الرِّحلة في السَّماء.

سقطت السُّقوف على الرؤوس، والجدران تداعت، كانوا يلقون بالقنابل داخل البيوت المغلقة، والدِّيناميت، من النَّوافذ، فتطير أَشلاء البشر مع الرُّكام في الهواء، وكنتُ أَراها في عتمتي، تعود لتحطَّ على الأَرض، عين هنا، ويد هناك، وقدم، ورأس، وأَمعاء، وأَشلاء، وأَوجاع، وصراخ، وأَحلام كانت تتبعثر، وتغتسل بالغبار، كان ذلك قبل دخول الكهرباء إلى المخيَّم.

الجثث بلا عدد، الطَّريق مفروشة بجثث أَهل دير ياسين، ما بين الجثَّة والجثَّة جثَّة أُخرى، هامدة بلا حراك.

حتَّى أُولئك الَّذين تصنَّعوا الموت، واختبؤوا بين الجثث، بعد أَن لطَّخوا ملابسهم بالدِّماء عادوا لقتلهم.

من كان محظوظاً، الَّذين ماتوا أَم الَّذين بقوا على قيد الحياة ليرووا تفاصيل المجزرة؟

من كان محظوظاً، الَّذين قُتلوا في البداية أَم الَّذين قتلوا قبل النِّهايات بقليل؟
من كان محظوظاً: أَنا، أَم شقيقي التوأَم أَمين؟ وهل أَنا بالفعل من نجا من المجزرة أَم هو؟
المختار الَّذي ذهب إلى عين كارم حيث ترابط كتيبة لجيش الإنقاذ، وراح يتوسَّل باكياً إلى الضَّابط كي يتدخَّل لوقف المجزرة، وجد أَنَّ جيش الإنقاذ عاجز عن الإنقاذ، وجده بحاجة إلى إنقاذ، قال له الضَّابط إنَّه ليس لديه أَوامر عسكريَّة كي يتدخَّل.
النِّساء اللَّواتي هربن من البيوت قبل تفجيرها، واختبأنَ في روث الحيوانات مع أَطفالهنَّ، قُتل معظمهنَّ أَيضاً حين راح الأَطفال يبكون من الجوع، وكشفوا ستر أُمَّهاتهم.
من كان محظوظاً: الموتى أَم الأَحياء، أُولئك الَّذين استطاعوا التسلُّل والخروج نحو عين كارم قبل اكتمال الطَّوق بعد نفاد ذخيرة القرية؟
ثمَّة من وقف في قرية عين كارم، وقايض ابنته بالذَّخيرة....وبارت البنتُ، ربَّما لم تكن جميلة مثل ياسمين زوجة خالي، يسيل لها لعاب أَحد ما، ويقايض أَباها عليها.
حلوة زيدان زغردت حين استُشهد ابنها محمَّد، فتناول والده الحاج عايش البندقيَّة، وقاتل حتَّى استُشهد هو أَيضاً، فزغردت، وتناولت البندقيَّة من زوجها، وقاتلت حتَّى استُشهدت هي الأُخرى.
حين استُشهدتْ لم يعد بوسعها أَن تزغرد، كان الرَّصاص هو الَّذي يزغرد في جسدها.
ليلى سمُّور، حين جمعوا النِّساء معاً في السَّاحة، سمعت صوت طفلة ابن خالها وهي تبكي يأتي من البيت، توسَّلت إلى جنديٍّ كي يسمح لها بإحضارها، قالت له إنَّها مستعدَّة لتبنِّيها، رافقها إلى البيت، كان خالها، وزوجة خالها، وزوجة ابن خالها غارقين في مستنقع دماء، والطِّفلة الرَّضيعة تمسك بفمها ثدي أُمِّها القتيلة وتبكي، صوَّب الجنديُّ رشَّاشه صوب الطِّفلة وقتلها، أُصيبت ليلى برعشه لم تفارقها إلاَّ حين أَطلق الجنديُّ النَّار عليها هي الأُخرى، وخلَّصها من رعشتها، ومن الحياة.
ليلى...والذِّئب.

المال سلبوه، الحليُّ، والذَّهب، والفضَّة، وكلُّ ما غلا ثمنه وخفَّ حمله، وكلُّ ما ثقل حمله وقلَّ ثمنه، حملوه....لم يبقوا شيئاً في القرية سوى بيوت تصفر فيها الرِّيح، وجثث بلا عدد، أَعني أَشلاء جثث بلا عدد، وأَشباح ظلَّت تنهض كلَّ ليلة في القرية حتَّى يومنا هذا.

قطَّعوا أَصابع النِّساء، ومزَّقوا آذانهنَ، وبطونهنَّ، واستعرضوا الأَسرى: نساء، ورجالاً، وأَطفالاً في موكب رومانيٍّ تاريخيٍّ، أَمروهم بالصُّعود إلى الشَّاحنات، داروا بهم في الأَحياء اليهوديَّة في القدس، وفي المستعمرات، ثمَّ عادوا بهم إلى دير ياسين، فقتلوهم، وأَلقوا بجثثهم إلى البئر.

كيف تشابهت عتمة البئر وعتمة القبر؟

في العتمة، قبل دخول الكهرباء إلى المخيَّم كانت تروي لي قصص المساء، قصص ما قبل النَّوم، قصص دير ياسين.

- ولدتُ توأمين فكانا صورة مكرَّرة مرَّتين.
- كيف لم يكن بوسعكِ أَن تعرفي من أَكون من التَّوأمين؟
- من قال إنِّي لم أَعرف؟
- من أَنا إذن؟
- ياسين.
- ما الَّذي يجعلك واثقة من الأَمر؟
- رائحتك....غريزة الأُمومة لا تُخطئ.

لم أَكن قد سمعتُ بعدُ قصَّة المرأَة الحيفاويَّة الَّتي ستحمل بعد دير ياسين بأُسبوعين فقط وسادة بدل طفلها، نتيجة للرُّعب، وتركض هاربة بها من حيفا إلى عكَّا، وتترك الولد في المهد خلفها، وإلاَّ كنتُ سأَلتها عن رائحة الأُمومة أَثناء الخوف، والمجازر، هل تبقى كما هي أَم تتشوَّش؟

أَمام البوَّابة المعدنيَّة العريضة الَّتي تفضي إلى الوادي أَوقفوهنَّ وهنَّ هاربات من المجزرة إلى عين كارم.

خرجوا من خلف السُّور بسلاحهم، أَربعة رجال وامرأَتان، جميعهم ملطَّخون بالدِّماء.

دم دم دك.

دم دم دك، دم دم دك.

عشرون طفلاً وعشر نساء....

إيقاع الوقت بطيييييء...إيقاع الأَلم أَسرع، إيقاع الخوف أَكثر سرعة، إيقاع العجز هو سيِّد الموقف....العجز والاستسلام لشبق القتل السَّاكن في عيون الجنود.

كلُّهم كانوا لحظتذاك جرحى، وكنتُ أَنا منهم، بعض الأَطفال كانت أُمَّهاتهم قد قتلن داخل القرية، فأَشفقت عليهم خالاتهم أَو عمَّاتهم، وحملنهم معهنَّ.

- **هل كنتُ محمولاً على ذراعك اليمين أَم اليسار؟ أُحاول أَن أَتذاكى.**
- **كنتُما غارقَين بالدِّماء والغبار، ولم يكن الفرق واضحاً بين اليمين واليسار.**

قافلة من النِّساء والأَطفال سلَّمت خطواتها للمجهول....واستسلمت في نهاية المطاف للقدر، والقدر كان مختبئاً خلف السُّور.

لم ينفع البكاء، ولا العويل، ولا النَّحيب، ولا التوسُّل، ولا الرَّجاء، ولا التضرُّع، ولا الدُّعاء، ولا سورة يس.

" وجعلنا من بين أَيديهم سدَّاً ومن خلفهم سدَّاً فأَغشيناهم فهم لا يبصرون"

كانت أَبصارهم من حديد...

واجهن السُّور مرغمات، وضعن أَطفالهنَّ على الأَرض، تركنهم خلفهنَّ بعد أَن أَمروهنَّ بذلك، وأَطلقوا النَّار بين أَقدامهنَّ، امتثلن في نهاية المطاف مرغمات.

- **يا خواجا....نحن نساء مسالمات...يبكين بحرقة وهنَّ يتوسَّلن للخواجات.**
- **يا خواجا...هل لديك أَطفال؟**
- **يا خواجا، أَتوسَّل إليك، طفلي، يا خواجا، أَبوس إيدك، أَبوس رجلك، طفلي يا خواجا مصاب وينزف.**
- **يا خواجا نحن نؤمن بموسى، وإبراهيم، وإسحق، ويعقوب، وسليمان، وداود...نحن مثلكم موحِّدون، ما الفرق بين اليهوديِّ والمسلمِ؟ ما الفرق؟**

- يا خواجا....نحن كنَّا نعيش أَهلاً، وجيراناً.

الطِّفل الجريح صرخ، طفلها، كان يصعد إلى السَّماء، يطير، يطير، يطير، ولأَنَّه بلا جناحين كان عليه أَن يعود إلى الأَرض، عبر من فوق السُّور، وتهاوت جثَّته على الأَرض، وسكت صوته، وتدحرجت الجثَّة إلى الأَسفل، وروحه هي الَّتي بقيت تطير، وتطير، وتطير، صعدت في السَّماء، تاهت في الفضاء، وجاء جبريل وقادها من يدها إلى الجنَّة.

صار طيراً من طيور الجنَّة!

يس.....ياااااااع سين.

" وجعلنا من بين أَيديهم سدَّاً ومن خلفهم سدَّاً فأَغشيناهم فهم لا يبصرون"

الأُمُّ جنَّت، فقدت عقلها تماماً، ركضت باتِّجاه البوَّابة لتلحق بالطِّفل، لكنَّ رصاصة لحقت بها هناك، وسقطت على الأَرض، فتناثر حزنُها وصراخها فوق التُّراب.

يس.....ياااااااع سين.

" وجعلنا من بين أَيديهم سدَّاً ومن خلفهم سدَّاً فأَغشيناهم فهم لا يبصرون"

النِّساء في تلك اللَّحظة ركضن نحو أَطفالهنَّ، لكنَّهنَّ تناثرن حولهم جثثاً حصدتها البنادق.

تسعة عشر طفلاً طاروا يومذاك من فوق السُّور، وتدحرجت جثثهم في الوادي، وأَرواحهم قادها في السَّماء جبريل، صاروا طيوراً من طيور الجنَّة، وبقيتُ أَنا وحدي، أَجترُّهم إلى يوم القيامة، صرت غراباً ينعق في جحيم الخراب.

المجزرة ولدت مجزرة، والسُّور كان شاهداً على ما جاء في الكتاب لذا هدموه خوفاً من أَن ينبت له لسان وينطق ذات يوم، وجاء في الكتاب، يس....كتاب ياااااااع سين، أَنَّ الشَّجرات الَّتي كانت هناك اقتلعوها كي لا تنبت لها أَلسنة ذات يوم وتنطق بما جرى....وأَحرقوا الأَعشاب، وقطعوا لسان خالي ياسين.

كان ذلك قبل وصول الكهرباء إلى المخيَّم.

يااااع....سيييين.

ستقول في العتمة أَين كان الله؟ وستعود بعد لأي لتستغفر ربَّها، وتتوب، وتقول ياربُّ أَين كنتَ حين جرى ما جرى عند السُّور، أَنا لستُ كافرة، أَنا أُصلِّي كلَّ يوم لك خمس مرَّات، وأُصلِّي صلاة قيام اللَّيل، وأُصلِّي الضُّحى...لماذا لم تكن هناك عند السُّور؟
ولماذا لم تسمع قولي وأَنا أُردِّد ضارعة لك:

" وجعلنا من بين أَيديهم سدَّاً ومن خلفهم سدَّاً فأَغشيناهم فهم لا يبصرون"

يا ربُّ كيف سمحت بأن يجري ما جرى في دير ياسين؟

إحدى المجنَّدتين حين رأَت ذلك الشَّبه المطلق بيننا، قرَّرت فجأَة أَن تغيِّر قواعد اللِّعبة، كان ذلك قبل رمي من تبقَّى من الأَطفال من فوق السُّور، سأَلتها عن اسمينا، ثمَّ راحت تسأَلها:

- كيف بوسعك أَن تميِّزي بينهما؟
- رائحة الأُمومة لا تخطئ.

حملتنا وذهبت بنا خلف شجرة ثمَّ عادت بنا عاريَين كما وُلدنا.....

- من منهما ياسين؟

راحت أُمِّي تبكي، ربَّما لم تكن واثقة من رائحة الأُمومة الَّتي تشوَّشت في لحظات الموت، أَشارت إلى واحد منَّا، فصفَّقت المجنَّدتان لها وهما تضحكان.

غطَّتا عينيها بعُصابة وأَحكمتا ربطها....كان صوت بكائنا متناغماً، متداخلاً مع أَصوات بكاء من تبقَّى من الأَطفال، وضعتنا جميعاً أَمامها، ما تبقَّى منَّا، سبعة أَطفال، كلُّنا نصرخ معاً، نبكي معاً، بصوت واحد، جوقة أَطفال تودِّع الحياة، يودِّعون جثث أُمَّهاتهم المبعثرة حولهم، يفهمون ما يجري، يفهمونه، يعونه، يدركونه، لكنَّهم عاجزون أَيضاً عن الفعل، عن القول، عن الاحتجاج، لم يكن ثمَّة فيهم من تعلَّم الكلام بعد، ولم يكن بوسعهم القول متوسِّلين:

- يا خواجا....نحن مجرَّد أَطفال مذعورين.
- من منهم ياسين؟

ربَّما وقفت حائرة والهلع يقتلها، يداها ترتجفان، وقدماها لا تكادان تحملانها....ربَّما أَشارت إلى أَيٍّ واحد منَّا بعد أَن تشمَّمت رائحتنا واحداً واحداً، ربَّما تشوَّشت رائحة الأُمومة وقتلها الخوف، واختلطت بروائح أَجساد الموتى، ودمائهم، ربَّما جُنَّت، ربَّما خذلتها الرَّائحة، ربَّما اختارت واحداً غيري وظلَّت مصمِّمة على أَنَّه أَنا، ربَّما أَكون إسماعيل، أَو معين، أَو أَمين، أَو خليل، أَو إبراهيم، أَو محمَّد، من يدري؟

قبل أَن يفكُّوا العصابة عن عينيها كانت أَجساد الأَطفال الآخرين تطير في السَّماء، من فوق السُّور، وتهوي نحو الوادي، وجبريل متعب وهو يقود الأَرواح نحو الجنَّة بلا توقُّف.

كانت تسمع أَصوات صراخهم وهم يبتعدون، يطيرون، ثمَّ يصمت الصَّوت، فجأَة يصمت، ثمَّ تسمع صوت ارتطام الجسد الصَّغير بالأَرض، خلف السُّور، وتسمع صوت اصطفاق جناحي جبريل وهو يطير بالأَرواح في السَّماء، نحو الجنَّة.

يس.....ياااااااء سين.

أَمهلوها عشر ثوان لتحمل النَّاجي الوحيد، أَنا، وتركض به، بدؤوا العدَّ إلى العشرة، وإطلاق النَّار بين عدد وآخر بين قدميها، خطفتني وراحت تركض مبتعدة وهي تتعثَّر برعبها، ودموعها الَّتي كانت تسقي الأَرض، كانت دموعها آخر مطر يهطل على القرية.

سدَّد مجنَّد نحو ظهرها....إلى القلب تماماً، وهي تركض مبتعدة، ثمَّ عاد وخفض فوَّهة البندقيَّة، سدَّد إلى الرُّكبة تماماً، أَصابها هناك، كان يمتحن قدرته على التَّصويب، وهو يتذكَّر تعليمات يوشع: نريدُ بعض الشُّهود مشوَّهين أَمثلة كي يراهم النَّاس في القرى الأُخرى، والمدن، ويشعروا بالرُّعب ممَّا قد يصيبهم، ويتركوا بيوتهم، تلك تعليمات الهاغاناه، ولو ترك الأَمر لي لما تركتُ منهم حيَّاً يتنفَّس...قال له يوشع.

وكان يريدُ أَيضاً أَن ينتقم لابن صهيون كوهين، القائد، صديقه الَّذي أُصيب في بداية المعركة برصاصة في ركبته بنفس الطَّريقة.

شعرتْ بالرَّصاصة تخترق ركبتها، تنفجر، وتفتِّت عظمها، والدَّم يتدفَّق منها، سقطت على الأَرض، وسقطتُ من يدها، وتدحرجتُ أَمامها، زحفتْ نحوي، انتشلتني وأَنا مغمى عليَّ، عارٍ، غارقٌ بالدِّماء، وظلَّت تزحف هابطة الطَّريق الوعر إلى عين كارم، وصلت إلى هناك مع أَذان العِشاء، لكنَّ ساقها اليمنى كانت قد انفصلت عن جسدها، وظلَّت عالقة في الطَّريق، هناك، بين صخرتين.

يوم السَّبت، اليوم الثَّاني من أَيَّام المجزرة، العاشر من نيسان عام 1948، حسب ما سأَعرفه فيما بعد، بعد سنوات طويلة، حين يموت خالي، وتؤول إليَّ مقتنياته، سأُدرك أَن الطَّريق الرَّئيسيَّ في الحارة سيكون مسرحاً لجثث القتلى.

مئتان وخمسون من أَصل سبعمئة قتلوا من أَهل القرية.

الَّذين نجوا من المحرقة نجوا بسبب عدم قدرة المجموعة الالتفافيَّة السَّيطرة على المرتفعات الغربيَّة بسبب المقاومة الَّتي أَعادتهم إلى بطن الوادي، ما جعل الطَّريق إلى عين كارم مفتوحة، وجعل الكثيرين قادرين على الخروج من فم الكمَّاشة، والهرب.

كانوا قد جمعوا الأَحياء الَّذين اختبؤوا بين الجثث، وأَوقفوهم أَمام الجدران، وأَطلقوا عليهم النَّار.

الجمعة يأمر يوشع بن نون الشَّمس كي تتوقَّف في كبد السَّماء، كي لا يدخل السَّبت، إلاَّ وهو في "أورشليم"، والسَّبت يدخل مشمساً، صافياً، على جثث شهداء دير ياسين.

الدَّم جداول في الطَّريق، تجمَّعت كما تتجمَّع المياه حين يتساقط المطر، في أَخفض النِّقاط، لتشكِّل بحيرات صغيرة، راح الذُّباب يحوم فوقها أَسراباً.

بعد حصار أَريحا، وسقوطها، وبأَمر من الربِّ قام يوشع وجنوده بقتل كلِّ ما يتنفَّس في المدينة، وإحراقها.

" [19] وكلُّ الفضَّة والذَّهب وآنية النُّحاس والحديد تكون قدساً للربِّ وتدخل في خزانة الربِّ. [20] فهتف الشَّعب وضربوا بالأَبواق. وكان حين سمع الشَّعب صوت البوق أَنَّ الشَّعب هتف هتافاً عظيماً، فسقط السُّور في مكانه، وصعد الشَّعب إلى المدينة كلُّ رجل مع وجهه، وأَخذوا المدينة. [21] وحرموا كلَّ ما في المدينة من رجل وامرأَة، من طفل وشيخ، حتَّى البقر والغنم والحمير بحدِّ السَّيف. [22] .... [24] وأَحرقوا المدينة بالنَّار مع كلِّ ما بها، إنَّما الفضَّة والذَّهب وآنية النُّحاس والحديد جعلوها في خزانة بيت الربِّ." *

---

*العهد القديم-سفر يشوع-الإصحاح السَّادس.

هل كانت مصادفة فقط، أَن تكون المجزرة يوم الجمعة كما في حصار "أُورشليم"؟
صلبوه إلى شجرة الكينا في الحارة، خالي، قيَّدوا يديه وقدميه إلى السَّاق، ومن الأَعلى دلَّوا حبلاً كالمشنقة لفُّوه حول عنقه، كان يجعله يشعر بالاختناق كلَّما حاول أَن يتحرَّك.
ثمَّة من كان يتناول طعامه إلى جانب الجثث، وثمَّة من كان يتفقَّدها بحثاً عن شيء ثمين، أَو عن أَحياء لقتلهم، وثمَّة من كان يتقيَّأُ، وثمَّة من كان ينهب البيوت، يحمل مقتنياتها إلى شاحنات جاؤوا بها لهذا الغرض.
قضوا اليوم بطوله وهم يطهِّرون القرية من الأَحياء، وينهبونها، ويوم الأَحد، دخل مسؤول الصَّليب الأَحمر في القدس القرية، وأُصيب بالذُّهول حين رأَى ما جرى فيها....
كان كلُّ ما في القرية يدعو إلى الجنون، الجنون فقط.
ما إن غادر حتَّى بدؤوا تحت ضغط أَوامر الهاغاناه محاولة التخلُّص من الجثث.
اقترح أَحدهم أَن يتخلَّصوا منها بأَسهل الطُّرق، أَن يحرقوها.
بدت الفكرة معقولة، مقبولة، فالجثث أَكثر من أَن تحصى، والوقت لا يسمح بدفنها، عدا عن الجهد المطلوب لذلك، ولماذا على القاتل أَن يدفن ضحيَّته؟ أَيُّ قانون ذلك الَّذي وضعه الربُّ يوم قتل قابيل هابيل؟
سكبوا عليها النِّفط، ثلاثة أَوعية من النِّفط، وأَشعلوا فيها النَّار وهم يطلقون صيحات النَّصر، ويردِّدون النَّشيد الوطنيَّ الَّذي أَلهب حماسهم، كانت أَصواتهم تتجمَّع وتتفرَّق، وتعود لتتجمَّع، كانوا يلقونه بخشوع وكأَنَّه صلاة القاتل أَمام النَّار.
الجثث لم تحترق تماماً، النَّار انطفأَت، بقيت شعلة هنا، وشعلة هناك، في جثَّة هنا، أَو جثَّة هناك، النَّشيد انقطع، الخشوع انتهى، أَعادوا الكرَّة من جديد، سكبوا النِّفط فوقها، وأَشعلوا فيها النَّار، لكنَّ النَّار عادت لتنطفئ.
أَعادوا ذلك مرَّة أُخرى، دون فائدة.

- ربَّما هي بحاجة إلى مادَّة أَقوى من النِّفط، قال أَحدهم.
- أَو ربَّما لا يريد الربُّ لنا إحراقها...قال آخر، لكنَّ رجلاً اسمه شمعون يونيتا، من ليحي، تفتَّقت ذهنيَّته عن فكرة عبقريَّة، بدا أَنَّه أَكثر حكمة من الآخرين، وأَكثر تجربة، وحنكة.
- الجثث لا تحترق في العراء احتراقاً كاملاً، لماذا تظنُّون أَنَّ النَّازيَّة بنتْ أَفراناً لهذا الغرض؟ الجثَّة بحاجة إلى مكان مغلق، وساعتين أَو ثلاث لتحترق بالكامل.

كان يوجِّه كلامه ليوشع بن زتلر بالذَّات، قائد "ليحي" في القدس، بدا أَنَّ يوشع اقتنع بذلك الكلام، لذا أَصدر أَوامره بنقل الجثث نصف المحترقة من الشَّارع إلى خلف السُّور، لكنَّ أَحداً لم يتحرَّك من مكانه.

رائحة الموت تعبِّق في القرية، رائحة الشِّواء، اللَّحم المشويِّ، لحم البشر، الملامح تداخلت، تشوَّهت، كان المشهد أَكثر قسوة من أَن يحتمله بشر، طقساً أَكثر من عبثيٍّ، يكتمل بذلك الدُّخان المتصاعد من بقايا الجثث، يعبر الأُنوف ويستقرُّ في الرِّئتين، فينشب مخالبه فيهما، ما جعل الكثيرين يتقيَّؤون فوق الجثث.

لا أَحد بوسعه احتمال ما يجري، لا أَحد بوسعه أَن يمدَّ يديه نحو جثَّة واحدة، الجثث أَصبحت حالة من الرُّعب، الهستيريا، الجنون، حالة من شيء عبثيٍّ لا يمكن للُّغة وصفه، أَو الإحاطة به، كان بعضها قد سال على بعض.

الجنود المتحمِّسون فجأَة صاروا متردِّدين، النَّشيد الوطنيُّ انقطع، الخشوع تحوَّل إلى حالة من الرُّعب، الجنود ما عادوا متماسكين واثقين من أَنفسهم كما كانوا من قبل.

أَطلق يوشع طلقة من مسدَّسه في الهواء، وهدَّدهم بأَنَّه سيقتل كلَّ من يخالف الأَمر، طلبوا منه أَن يكون أَوَّلهم فوافق.

لكلِّ جثَّة مقاتلان اثنان، أَحدهما يرفعها من جهة الرَّأس، والآخر من القدمين، يعدُّون حتَّى الثَّلاثة ويرفعونها دفعة واحدة، معاً، لكنَّها ما إن تصبح في الهواء حتَّى ينفصل

جزء منها أَو أَجزاء، ثمَّة من ينفصل رأسه، وثمَّة من ينقسم إلى قسمين، فيبقى كلُّ قسم في يد جنديٍّ، وثمَّة من تتساقط ذراعاه وتبقيان خلفه في الشَّارع.
اختلطت الأَعضاء، تداخلت الجثث، ما عاد أَحد يميِّز أَعضاء جثَّة عن أُخرى، كانت ملامح الجثث أَصلاً قد تشوَّهت بفعل النَّار، الأَصابع ذابت، الجلد ذاب، العيون انطفأَت، الآذان اختفت، الشَّعر احترق، الأُنوف سالت، رائحة اللَّحم المشويِّ في دير ياسين تتمدَّد في السَّبت، والسَّبتُ يكبر، يتَّسع، يكبر، يتَّسع، حتَّى يبتلع كلَّ أَيَّام الأُسبوع، ويصبح الوقتُ سبتاً واحداً لا ينتهي أَبداً.
حتَّى السَّبت ما عاد محرَّما.
كاد الأَمر أَن يتحوَّل إلى اشتباك بين ليحي، وإرغون من جهة، ووحدة "الغدناع" التَّابعة للهاغاناه، بقيادة يوشع أَرئيلي من جهة أُخرى، حين حاولت الأَخيرة أَن تدخل القرية من أَجل إجبار المقاتلين على دفن الجثث، ثمَّ سمحوا لهم بمغادرة القرية، مع ما نهبوه منها، وقاموا هم بهذه المهمَّة طوال اللَّيل، يوم الإثنين، وصباح الثُّلاثاء، بمساعدة وحدة الشُّرطة العسكريَّة في لواء عتصيوني التَّابع للهاغاناه.
البيوت الَّتي لم يستطيعوا إخراج الجثث منها لكثرتها آثروا نسفها، كانت تلك أَسهل الطُّرق للتخلُّص من الجثث، تطايرت أَشلاء البشر في السَّماء، ثمَّ هبطت مثل مطر بشريٍّ ودفُنت تحت الأَنقاض، أَياد، وأَقدام، ورؤوس، وأَعناق، وصدور، وبطون، لنساء، وأَطفال، ورجال، تداخلت، اختلطت.
كانوا يقتلون الموتى من جديد، كانوا حائرين لا يفهمون كيف بوسعهم التخلُّص من الجثث الكثيرة الَّتي خلَّفوها في القرية، وأَنا أَغيب عن وعيي، وأَعود، وفي كلِّ مرَّة أَصحو فيها من موتي أَقول لذاتي إنَّ ذلك لا يمكن أَن يكون حقيقيَّاً، وإنَّني أَحلم لا بدَّ، أَحلم، وإنَّ ذلك أَقسى كابوس قد يراه بشر.....أَقسى بكثير من أَن يحتمله الإنسان، يكتب خالي.
في بعض اللَّحظات تكفر بكلِّ شيء، بهذا الكون، بالبشر، بالحياة، وترفع رأسك إلى الله، تصرخ: يا الله كيف يمكن أَن تبقى صامتاً على كلِّ ذلك؟

كنتُ أَتمنَّى لو كنتُ معهم، لو متُّ، لو كنتُ مقتولاً، لو كنتُ محروقاً، لو كانت جثَّتي قد تساقطت، تفتَّتت وتحوَّلت إلى أَشلاء، يا الله، كيف يمكن أَن يحدث كلُّ ما حدث وتبقى صامتاً دون حراك؟ من الَّذي كان يتعذَّب بالضَّبط: أَنا الحيُّ الَّذي شاهد كلَّ تلك الكارثة أَم جثث الموتى؟

هل كانوا يشعرون بما يجري لهم؟ هل كانوا يعون ذلك؟ هل يعي الميت ما يدور حوله؟ هل تتعذَّب الرُّوح مثلما يتعذَّب الجسد؟

كان الموت فيَّ، عليَّ، بيني وبيني، كان الموت أَنا، وكنتُ أَنا الموت....يكتب خالي.

ياسمين زوجة خالي ياسين، أَجمل امرأَة في فلسطين.

التقيا ذات مرَّة في القدس، كانا قد شاركا في مظاهرة انطلقت من باب العمود نحو سجن القشلة، حين كان المندوب السَّامي، السِّير أَلن غوردون كاننغهام في زيارة تفقُّديَّة للسِّجن، واستغلَّت القوى الوطنيَّة تلك الزِّيارة، ودعت النَّاس للخروج كي يعبِّروا عن غضبهم على ممارسات بريطانيا القمعيَّة ضدَّ العرب، ومحاباتها لليهود، وغضِّها النَّظر عن صفقات السِّلاح الَّتي أَبرمها اليهود سرَّاً مع دول أَوروبيَّة بملايين الدُّولارات، ووصلت أَخبارها إلى العرب.

كان الجميع يفهم تماماً أَنَّ الأُمور ذاهبة إلى الحرب بين العرب واليهود، وكان عبد القادر الحسينيُّ أَيَّامذاك قد خرج من سجون العراق، واتَّجه إلى مصر لشراء السِّلاح، والذَّخائر والمتفجِّرات من صحراء مصر الغربيَّة، وليبيا، استعداداً للحرب.

نساء القدس كنَّ مندفعات ما كان يثير حماس الرِّجال أَكثر، ويجعلهم أَكثر استعداداً للمقاومة حتَّى الموت.

المرأَة تثير في الرَّجل ذلك الشُّعور الغامض الغريب، شعور التَّضحية، يشعر بطاقة غريبة تندفع في جسده وهي إلى جانبه، ويحاول في كلِّ لحظة أَن يثبت لها رجولته، وبطولته، وقدرته على حمايتها، لا فرق في ذلك بين كبير وصغير.

ربَّما كان ذلك الشُّعور بالذَّات هو الَّذي جعل خالي يندفع فجأَة ليحميها من ضربة هراوة كادت أَن تنزل على رأسها، فنزلت على رأسه.

يومذاك التقت أَعينهما أَوَّل مرَّة وهو يسقط على الأَرض، وتدوسه أَقدام رجال البوليس.

حين أَفاق، حين فتح عينيه في عيادة السِّجن، كان أَوَّل ما تذكَّره وجه ياسمين.

لم يكن يفكِّر كثيراً في مصيره، ولا بالأَلم الهائل الَّذي كان لحظتذاك يقبض على جنبات رأسه مثل مخالب نسر حاذق، كان يفكِّر بياسمين.

هل نجت؟ هل سُجنت؟ هل ضربت؟ أَين هي؟ ومن تكون؟ ما اسمها؟ ولماذا حدَّقت إليه بتلك الطَّريقة؟

عيناها سحرتاه، جنَّنتاه، نظرتها سرقته، شجاعتها جعلته يخجل من نفسه، تلبَّسته، احتلَّته، وحين خرج راح يبحث عن بيتها حتَّى وجده، قابلها ذات مرَّة أَمام الباب، في عقبة الشَّيخ ريحان، نظر إليها، ونظرت إليه، عرفته، اقتربت منه، شكرته، سأَلها عن اسمها فقالت له إنَّها ياسمين، ومضت في طريقها إلى حيث لا يدري.

داخ، صُدم، جُنَّ، فقد عقله، صار يهذي باسمها وهو نائم في اللَّيل، أَصبح منذ ذلك اليوم ياسين بن الملوَّح.

كان قيس يعود فيه، ينبعث في جسده مرَّة أُخرى، يحتلُّه، لكنَّ حبيبته صار اسمها ياسمين.

أَهمل عمله في الكسَّارة، أَهمل نفسه، وكلَّما كانوا يبحثون عنه كانوا يجدونه هناك، في عقبة الشَّيح ريحان، يدور حول بيتها، وكأَنَّه كعبته المقدَّسة، يطوف، يطوف، يطوف بلا تعب، ويتعبَّد في صحنه.

يقترب منها فتبتعد عنه، يحاول أَن يكلِّمها لكنَّها تصدُّه، كان ذلك يجعله أَكثر حزناً، وجنوناً، وتعلُّقاً بها.

جدَّتي تلحُّ على جدِّي أَن يخطبها له، وجدِّي يرفض.

- سيموت، سيجنُّ ويموت، سنفقده إلى الأَبد.
- سيشفى منها ذات يوم، ويعود إلى رشده.
- وهل يمكن أَن يشفى البشر من الحبِّ؟ هل يمكن ذلك؟ كانت جدَّتي حكيمة لذا ماتت باكراً، مع بدايات المذبحة، حين اقتحموا البيت الأَقرب إلى المسجد بعد أَن أَطلقوا النَّار على جدِّي.

كان جدِّي إمام دير ياسين، يؤمُّ بالنَّاس في الصَّلاة، كان شيخها، ودرويشها، يأتيه البشر من كلِّ القرى المجاورة، ومن القدس، يتلمَّسون شفاء مرضاهم بكراماته، وكان يسافر إلى مصر مرَّة في السَّنة، يغيب شهراً، يلتقي بأَئمَّة الصوفيَّة الخلوَتيَّة هناك.

- لماذا لا تزوِّجه لها وتريحنا من هذا العذاب؟ تسأَله جدَّتي.
- هي مدنيَّة وهو فلاَّح، هي متعلِّمة، وهو لم ينه الصفَّ السَّادس، ما الَّذي تعتقدين أَنَّها ستفعله به لو وافقت على زواجه منها؟ ستحمله إلى القدس، ستسرقه منَّا، سينسانا، سيصبح عبداً لها، صدِّقيني، ثمَّ عليك أَن تفهمي أَنَّني لا أَستطيع أَن أَذهب إلى بيتها لأَطلبها من أَبيها، ويكسفوني، وأَعود منكَّس الرَّأس، أَنا لا أَحتمل ذلك، ماذا سيكون موقفي أَمام النَّاس؟
- سأَذهب أَنا لأَجسَّ النَّبض قبلك، سأَعفيك من هذه المهمَّة.

ماذا يفعل الحبُّ بالبشر؟ وكيف يغيِّرهم، ويجعلهم يعلنون العصيان على كلِّ ما حولهم؟ ينفصلون عن الواقع، ولا يعودون لرؤية شيء سوى ما يريدون رؤيته؟

أَمام ضغط رجال القرية الَّذين كانوا يرون ما يجري، وكيف ينهار خالي، ويضيع، ويفقد عقله، وافق جدِّي في نهاية المطاف على إرسال جدَّتي لاستشارة أَهلها في الأَمر.

يومذاك لم يصدِّق أَحد كيف تغيَّر خالي، وانقلب.

الرَّجل الميت عاد إلى الحياة.

الجثَّة اندفعت الحياة فيها فجأَة، وافق على أَن يستحمَّ ويحلق ذقنه، وافق على أَن يغيِّر ملابسه، وافق على أَن يبتسم، ويفرح، وافق على أَن يعود خالي الَّذي كانه قبل أَن يرى ياسمين وتسرق عقله، وتتركه للحبِّ ينهش جسده مثل طائر جارح.

الرَّجل الَّذي استقبلهما بالتَّرحاب هي وخالي، لم يكن أَباها، بل كان عمَّها، أَبوها كان قد مات.

- البنت مخطوبة....قالت أُمُّها لهما...وأَضافت: لولا ذلك طبعاً لتشرَّفنا بكم، لا أَحد يرفض شرف أَن يناسب أَهل دير ياسين.

خالي أُصيب فجأَة بالإحباط، تجهَّم وجهه، واسودَّ، شعر بالتَّوتُّر، راح يهزُّ قدمه دون إرادة، شعر بأَنفاسه تضيق، وصدره يكاد ينفجر.

- لمن هي مخطوبة؟

نهرته جدَّتي، وأَخبرته أَنَّه لا يمتلك الحقَّ بإلقاء مثل ذلك السُّؤال.

بدا كلُّ شيء قد انهار، انتهى، لم يصدِّق خالي نفسه، لم يصدِّق ما يسمعه، كانت جدَّتي تستأذن بالخروج وهو ما زال جالساً....أَمرته بالوقوف، قدماه ربَّما ما كانتا قادرتين على حمله....

- أَنا موافقة بشرط.

قالت ياسمين فجأَة وهي تدخل من الباب.

ربَّما قفز قلبه بين كفَّيه، ربَّما ارتعش مثل طائر يفيق من الموت، يتحرَّر فجأَة من حدِّ السكِّين، ربَّما لم يصدِّق أُذنيه.

- أَنا موافق....قال بلهفة دون أَن يسمع الشَّرط، وراح يتأَمَّلها وهو لا يصدِّق عينيه، وقلبه يتقافز من الفرح في صدره.
- ما دام أَهلكِ يرفضون فلا يمكن لهذا الزَّواج أَن يتمَّ....قالت جدَّتي.
- هم يعرفون أَنِّي لن أَتزوَّج إلاَّ ممَّن يحقِّق لي هذا الشَّرط....قالتْ.
- أَنا موافق...عاد خالي يقول.
- دعنا نسمع الشَّرط أَوَّلاً....قالت جدَّتي وراحت تؤنِّب خالي.

أُمُّها وعمُّها فوجئا بدخولها، شعرا بالحرج، بدا ذلك واضحاً على ملامحهما، نهرها عمُّها لكنَّها لم تعره التفاتاً، جلستْ.

- وما هو شرطكِ؟ سأَل خالي متلهِّفاً.

- أَن يكون مهري حياة وليام جاك، الضَّابط الإنجليزيِّ، ولا أُريد مهراً سواه....قالت، فصمتَ الجميع، وراحوا يحدِّقون بعضهم إلى بعض.
- ماذا فعل وليام جاك لتكون حياته مهمَّة إلى هذه الدَّرجة؟ سأَل خالي.
- قتل أَبي....قالت.
- موافق قال. راحت جدَّتي تولول، وتصرخ فيه وفيها، وانفجرت فجأَة بالبكاء.
- عليك أَن تفهم أَنَّك ستموت قبل أَن تقتله...قال عمُّها.
- دعني أُحاول....قال خالي.
- هذا انتحار....قالت أُمُّها.
- إن متُّ سأَموت شهيداً...ردَّ خالي.
- هذا هو شرطي الوحيد، قالت ياسمين وهي تقف على قدميها، وتعتذر، وتغادر الصَّالة.

تحوَّلت الصَّالة إلى فوضى، بكاء جدَّتي، وتوسُّلها، ومواساة والدة ياسمين، وغضب عمِّها، كأَنَّها أَلقت بينهم قنبلة وخرجت.

- هل يوجد عاقلة تطلب حياة ضابط إنجليزيٍّ مهراً لها؟ سأَلت جدَّتي.
- ابنتي مجنونة....قالت الأُمُّ.
- وابني متهوِّر...أَنا أَعرفه. قالت الجدَّة.
- أَنا لستُ موافقاً...قال العمُّ، وأَضاف: إيَّاكَ أَن تلقي بنفسك إلى التَّهلكة يا بنيَّ، إنس ما قالتْه لك، ستموت قبل أَن تظفر بها، عشرة رجال طلبوها قبل ذلك، واشترطتْ عليهم الشَّرط ذاته، وانسحبوا، كانوا عقلاء، ستبور هذه البنتُ، لا شكَّ في هذا...قال وهو ينظر نحو أُمِّها، كان صريحاً حدَّ الفجيعة.

كانت أَوراق خالي الَّتي ورثتُها عنه قد أَضحت صفراء، مغبرَّة، متآكلة، وقد امتلأَت بآثار الشَّاي والقهوة.

كتب يقول:

"بريطانيا هي المسؤول الأَوَّل عن كلِّ ما جرى في فلسطين.....هي الَّتي خطَّطت، ونفَّذت، هي الَّتي أَصدرت وعد بلفور، وسهَّلت هجرة اليهود إلى فلسطين، وتساهلت معهم، وسلَّحتهم، وتآمرت مع العالم، وأَلَّبته، بريطانيا هي الدَّاء الأَوَّل، السلُّ الَّذي راح يأكلُ رئة فلسطين".

حين روت جدَّتي لجدِّي ما جرى معهما، أُصيب جدِّي بحالة من الهستيريا، وراح يلومها، ويلوم نفسه.

- أَنتِ كنتِ السَّبب، أَنتِ من أَصرَّ على الذَّهاب، كنتُ أَعرف أَنَّ وراء البنت مصيبة، أَشعر بذلك.

حاول أَن يحشر خالي، أَن يضع له طوقاً ويربطه أَمامه في المسجد، لكنَّ خالي تمرَّد عليه، للمرَّة الأُولى يتمرَّد خالي على جدِّي.

هل كان سيصبح مقاتلاً شرساً لولا ياسمين؟ لولا حبُّه لياسمين؟ هل كان بوعيه حين عاد متسلِّلاً بسلاحه إلى دير ياسين حين كان النَّاس يدفعون حياتهم ثمناً لهروبهم من هول المجزرة؟

الثَّورة الكبرى اندلعت عام 1936، بسبب تبنِّي بريطانيا وعد بلفور، ومساعدتها لليهود، والهجرة اليهوديَّة الَّتي كانت تنمو باضطراد، وانكشاف عمليَّات تهريب اليهود للأَسلحة، واستشهاد القسَّام ورفاقه في أَحراش يعبد، وانتشار الخلايا الثوريَّة في فلسطين.

كانت ياسمين آنذاك في العاشرة من عمرها.

في القدس كانت الحياة قد تحوَّلت إلى جحيم.

سامي الأَنصاريُّ* نفَّذ عمليَّة في سينما "أَديسون"، في المنطقة اليهوديَّة في القدس،

---

*سامي إبراهيم الأَنصاري: مناضل فلسطيني من مواليد القدس عام 1917، استُشهد عام 1936 إثر إصابته أَثناء عمليَّة اغتيال آلن سيكرست مفتِّش البوليس الإنجليزي من أَصل يهودي.

قتل ثلاثة يهود وجرح اثنين، وفرَّ هارباً، وحين اغتيل الشُّرطيُّ بيرد في البلدة القديمة بعد ذلك مباشرة، جنَّ جنون الضَّابط آلن سيكرست، مفتِّش البوليس الإنجليزيِّ الَّذي كان من أَصل يهوديٍّ، وعاث في شوارعها خراباً، راح ينهال على النَّاس في الشَّوارع بعصاه ضرباً دون سبب، يعذِّب، ويضرب، ويسجن، ويفتِّش البيوت، ويضرب النِّساء والأَطفال، ويتلف الأَثاث، ويحطِّم النَّوافذ، والنَّاس يشكونه للمندوب السَّامي دون جدوى.

آنذاك، وضع سامي الأَنصاريُّ، مع بهجت أَبو غربيَّة* خطَّتهما لتخليص النَّاس من شرِّه.

قضت الخطَّة أَن يكمنا له عند مدخل وادي الجوز، عند مفترق وادي الجوز، الطُّور، كرم الشَّيخ، بعد أَن راقباه شهراً، واكتشفا أَنَّه كلَّ يوم جمعة في الحادية عشرة صباحاً، يقود سيَّارته بنفسه إلى مخفر باب الأَسباط للتَّفتيش عليه، من دون سيَّارة حراسة، يرافقه حارس واحد فقط يجلس إلى جانبه، وأَنَّ سرعة السيَّارة أَثناء العودة، في تلك النُّقطة تكون بطيئة مع صعودها الطَّريق.

صباح 12 حزيران عام 1936 كمنا له في مقبرة باب الأَسباط، قرب برج اللَّقلق، وحين شاهدا السيَّارة تمرُّ متَّجهة إلى المخفر- وكان من عادته أَن يعود حالاً بعد التَّفتيش- نزلا إلى الشَّارع العام، طريق أَريحا، حيث طلوع ستنا مريم، وانتظرا وصولها، وحين أَصبحت أَمامهما مباشرة راحا يطلقان عليه وعلى حارسه النَّار**. أُصيب سامي الأَنصاريُّ في العمليَّة برصاصة اخترقت صدره، وقبضت عليه قوَّة عسكريَّة كانت تمرُّ مصادفة من تلك الطَّريق، حمله الجنود ورموه في سيَّارة شحن،

---

*بهجت أَبو غربيَّة: 1916-2012 مناضل فلسطيني، يلقَّب بشيخ المناضلين الفلسطينيِّين، أَحد قادة جيش الجهاد المقدَّس، كان عضو قيادة قطريَّة في حزب البعث العربي الاشتراكي قبل أَن يشارك في تأسيس منظَّمة التَّحرير الفلسطينيَّة، انتخب عضواً في اللَّجنة التَّنفيذيَّة للمنظَّمة ثلاث دورات، وشارك في تأسيس جيش التَّحرير الفلسطيني.

** مذكَّرات المناضل بهجت أَبو غربيَّة 1916-1949 -في خضمِّ النِّضال العربيِّ الفلسطينيِّ-مؤسَّسة الدِّراسات الفلسطينيَّة-ط1-1993.

ونقلوه إلى سجن مشفى الحكومة في المسكوبيَّة دون إسعاف، وما لبث أَن فارق الحياة بعد ساعات، وهو ينكر تماماً أَنَّ ثمَّة من شاركه تلك العمليَّة.
بهجت كان قد انسحب إلى البلدة القديمة، وتعامل مع الأَمر بهدوء، وأَنكر أَنَّ له صلة بالأَمر، وحين دفن أَهل القدس سامياً، أَقسم على أَن ينتقم له.
في العاشر من آب، عام 1936 قام باغتيال ضابطي طيران إنجليزيَّين وهما عائدان من كنيسة الجسمانيَّة، في المكان ذاته الَّذي اغتالا فيه هو وسامي سيكرست.
يومذاك لجأَ إلى بيت أَبي ياسمين، صديقه في النِّضال، واختبأَ فيه ريثما تهدأُ الأُمور، وينجلي الموقف.
جنَّ جنون الإنجليز بعد تلك العمليَّة، وفرضوا حظر التَّجوُّل على القدس، وعاثوا في البلدة القديمة خراباً، داهموا البيوت، ضربوا النَّاس، عذَّبوهم، اعتقلوا الكثيرين، داهموا بيت أَبي ياسمين، فاعترضهم، لذا ضربوه حتَّى ما عاد قادراً على الوقوف على قدميه.....
سقط على الأَرض، أَمسك به وليام جاك من ثيابه ورفعه إلى الأَعلى، كان وجهه مليئاً بالدِّماء، والبنات كنَّ يصرخن، وزوجته تدافع عنه، فيضربونها هي الأُخرى، ويبعدونها....
كان يحاول إلهاءهم ريثما يبتعد بهجت إلى أَبعد ما يستطيع، كان بهجت قد قفز إلى سطح منزل مجاور، وفرَّ هارباً في اللَّحظة الَّتي كانوا يداهمون فيها البيت.

- أَين هو؟
- لا أَدري أَين هو....أَبوها بالكاد كان قادراً على الكلام.

ربَّما وشى به أَحد الواشين، ربَّما كان ثمَّة من رآه وهو يلجأُ إلى البيت.
وضع وليام مسدَّسه في جبهة أَبيها...وفي تلك اللَّحظة بصق أَبوها الدِّماء في وجهه، فأَطلق عليه النَّار.
في التَّحقيق ادَّعوا أَنَّ الرَّجل كان مسلَّحاً، وأَنَّه هدَّدهم بسلاحه، لذا قتلوه، وقدَّموا سلاحاً أَحضروه بأَنفسهم، ادَّعوا أَنَّه له.

لم يكن ثمَّة من البوليس من يريد أَن يصدِّق أَيَّة رواية غير تلك الرِّواية، وذهبت مطالبات أَهله بمحاكمة عادلة للضَّابط أَدراج الرِّياح.

بريطانيا أَصل الدَّاء يكتب خالي.....

كان علينا أَن نقاوم رغم ضعف إمكانيَّاتنا على جبهتين: جبهة الإنجليز، وجبهة اليهود، يكتب.

بحث خالي عن بهجت أَبو غربيَّة حتَّى استطاع الوصول إليه، ومقابلته، أَخبره بما جرى بينه وبين ياسمين، وطلبها حياة وليم جاك مهراً لها، ذكَّره بأَنَّ وليم جاك قتل صديقه، ورفيقه، قبل عشر سنوات، يوم كان يدافع عنه كي يتمكَّن من الفرار من قوَّة البوليس.

- ومع ذلك فمعركتنا الآن مع اليهود أَكثر أَهميَّة...قال له.
- هذا لا يمنع من قتله، فهم ما زالوا أَعداءنا، يعيثون في البلاد خراباً.
- لكنَّ الوصول إليه صعب، أَتعرف كم حارساً معه؟
- أُريد أَن أُحاول.
- أَنا لا أُعارض طبعاً، لكنِّي لا أُريدك أَن تموت بلا مقابل...

أَخبره كيف أَنَّ سامي الأَنصاريَّ حين نفَّذ عمليَّة السِّينما، اندسَّ بين اليهود كأَنَّه واحد منهم، فلم يشكَّ فيه أَحد، وهكذا استطاع الهرب، لأَنَّه كان يتقن العبريَّة، وأَنَّه هو، بهجت، يتقنها أَيضاً، وأَنَّ عليه، على خالي، إن أَراد النَّجاة في اللَّحظات الصَّعبة أَن يتعلَّمها.

شدَّ على يده....

- أُريد سلاحاً...قال خالي.
- لن تحتاج أَكثر من مسدَّس، قال له، وأَضاف:
- غداً تعال في مثل هذه السَّاعة سأُعطيك مسدَّساً، من أَين ستبدأُ؟
- سأُراقبه....

- حسناً....راقبه جيِّداً، وسجِّل على دفتر كلَّ ما يقوم به باليوم، والسَّاعة، والدَّقيقة، والثَّانية، فنقطة الضَّعف عادة تكمن في التّكرار، الرُّوتين الَّذي يمارسونه، لكنَّ عليك أَثناء ذلك تعلُّم العبريَّة، سنكون دائماً بحاجة إلى من يتقنها.
- سأَفعل....وسأَضعك في صورة الوضع.
- سأَكون بانتظارك.

كان وليم جاك قد أَصبح النَّائب الخاصَّ لنائب المفتِّش العامِّ لرئاسة الشُّرطة والسُّجون، وكان محاطاً بالحرس، ومجرَّد رفع مسدَّس أَمامه كان حالة انتحار ليس أَكثر، ومع ذلك، راح خالي يتابع كلَّ تحرُّكاته من بعيد، يرصدها، ويسجِّل في دفتر صغير يحتفظ به في جيبه: اليوم، والتَّاريخ، والسَّاعة، والفعل.....ويقارن بعضها ببعض كلَّ أُسبوع، وشهر، حتَّى توصَّل أَخيراً إلى خطَّة محكمة للتخلُّص منه، نقطة ضعف في برنامج تحرُّكاته يمكن له أَن ينفذ من خلالها، ويقتله.

مساء السَّبتِ، كلَّ أُسبوعين، كان وليام يقابل عشيقة له بالسرِّ في يافا، تعمل مدرِّسة في إحدى الإرساليَّات الدِّينيَّة، يقود سيَّارته بنفسه إلى هناك، وحده، سرَّاً، خوفاً من أَن يراه أَحد.

كان زوجها يخرج في ذلك اليوم عند العصر، ولا يعود إلاَّ في اليوم التَّالي صباحاً، عند الثَّامنة تقريباً، لذا كان وليام يغادر البيت مبكِّراً، مع أَذان الفجر.

عاد لمقابلة بهجت أَبو غربيَّة، وضع المعلومات كلَّها أَمامه، أَرسل أَبو غربيَّة معه مقاتلاً يُدعى منير العسلي، ذهبا معاً إلى يافا، راقبا البيت، درسا الشَّوارع المؤدِّية له، المداخل، والمخارج، ونقاط التَّفتيش، ومراكز البوليس القريبة، وتجمُّعات اليهود، وفي نهاية المطاف قرَّرا أَن أَفضل مكان لقتله، هو مدخل بيت العشيقة، صباحاً، وهو يغادر البيت، لأَنَّه يكون أَقلَّ حذراً في تلك اللَّحظة، وتكون الشَّوارع خالية من النَّاس، ورتَّبا خطَّة اختبائهما في بيت صديق لمنير، قريب من مكان العمليَّة، بعد أَن درسا الطَّريق الَّتي سيسلكانها إلى البيت.

قلب ياسمين يستحقُّ أَن يموت من أَجله.
كان يحلم بها ليل نهار، حين يغمض عينيه، يضمُّها إليه وينام.
أَحياناً قد يكمن الوطن كلُّه في امرأَة، قد تصبح فلسطين هي ياسمين، وتصبح ياسمين فلسطين، يختلطان إلى تلك الدَّرجة الَّتي لا يمكن لك فصلهما، أَن تموت من أَجل ياسمين يعني أَن تموت من أَجل فلسطين، وأَن تموت من أَجل فلسطين يعني أَن تموت من أَجل ياسمين.
كيف استطاعت بنظرة واحدة أَن تسرق حياته، وتبعث فيه كلَّ تلك القوَّة، والعنفوان؟
كيف استطاعت ياسمين أَن تجعله يعصي أَوامر أُمِّه، وأَبيه، وتزرع فيه كلَّ هذا العناد؟
حبٌّ من طرف واحد؟ ربَّما يبدو الأَمر كذلك في ظاهره، هو يحبُّها أَضعاف أَضعاف ما تحبُّه، هي أَصلاً لم تصرِّح له بحبِّها، لم تقل له أُحبُّك لو مرَّة واحدة، لكنَّها مع ذلك، حين قابلها خارج البيت منذ أُسبوع، وأَخبرها بما وصل إليه، شدَّت على يده، أَمسكت بكفِّه وشدَّت عليها، نظراتها كانت غريبة، فيها عاطفة غريبة، شعر بدفء كفِّها، شعر بتلك الحرارة تنتقل إليه، تمرُّ في جسده، تسري مع دمه، العالم كلُّه بات يكمن هناك، في باطن كفِّ ياسمين.
في تلك اللَّيلة قاوم خوفه، وضعها أَمام عينيه، ومضى إلى يافا، كي يؤنسه وجودها، ويجعله يتغلَّب على تردُّده.
ما عاد ثمَّة طريق تقود إلى الخلف، وعليه أَن يكون بمستوى المسؤوليَّة الملقاة على عاتقه، بمستوى ياسمين.
منير ظلَّ صامتاً طوال الطَّريق، لكنَّ وجوده معه، كان يُشعره بالثِّقة والأَمان، فهو مناضل مجرِّب، خاض مثل هذه الأَعمال، وبوسعه أَن يتمالك نفسه لحظة الحسم، ويسيطر على أَعصابه.
سيذكر دائماً تلك النَّظرة في عيني وليام جاك....رغم الظَّلام الَّذي كان يحيط بهم.
النَّظرات ربَّما تحمل نوراً في أَعماقها يبدِّد الظُّلمة، ويجعل رؤيتها ممكناً رغم العتمة.

أَمام الباب ودَّعته، العشيقة، قبَّلته، كان الضَّوء ينسكب عليه من الدَّاخل، كان حين يزورها يذهب بملابسه المدنيَّة، ويضع مسدَّسه في ظهره، تحت الحزام، كان ذلك يعني ثانيتين اثنتين إضافيَّتين لصالحهما كما قال منير، الأُولى هي المفاجأَة، والثَّانية هي حاجته لأَن يسحب مسدَّسه من خلف ظهره، هاتان الثَّانيتان هما اللَّتان سينجزان فيهما مهمَّتهما.

كانا قد اختبآ خلف زاوية البيت، وما إن أَغلقت العشيقة الباب بعد وداعه حتَّى كانا واقفين أَمامه، بمسدَّسين، يطلقان عليه النَّار.

النَّظرة الأُولى كانت مليئة بالمفاجأَة، والثَّانية بالرُّعب، والثَّالثة بالموت.

حتَّى القاتل المحترف الَّذي يتوقَّع موته كلَّ لحظة يفاجأُ به.

أَطلقا ساقيهما للرِّيح، كانا يسمعان صوت وقع أَقدام تقترب، وصوت العشيقة وهي تصرخ، وتبكي، ابتعدا بما يكفي عن الموقع، اختبآ يومين في بيت صديق منير ثمَّ عادا إلى القدس.

آثر خالي أَن يختبئ في الكسَّارة ريثما ينجلي الأَمر.

اقتنى بندقيَّة م1 وخبَّأَها في الكسَّارة، وقرَّر القتال حتَّى الموت إن حاصروه، وحاولوا القبض عليه.

كانت جدَّتي تفهم أَنَّ ثمَّة سرَّاً في الأَمر، وأَن عدم مبيته في البيت الَّذي يبعد خمس دقائق عن الكسَّارة يعني أَنَّ له ضلعاً في مقتل وليام جاك، حين انتشر الخبر في القدس.

تلطم خدَّيها، تحمل له الطَّعام وتذهب لزيارته، تسأَله فلا يجيب، يتذرَّع بالعمل، وهي تنضح أَسى، وترتجف رعباً، وتفهم أَنَّ ما بينه وبين المشنقة خطوة واحدة فقط.

ثمَّة من كان يشكُّ في الأَمر من أَبناء القرية أَيضاً، ويتساءل عن سرِّ عدم مبيت خالي في بيته، يسأَلونه، فيجيب أَنَّه على خلاف مع أَبيه، وجدِّي يؤكِّد على الأَمر، ما جعل وجهاء القرية يتدخَّلون للإصلاح بينهما، ثمَّ فجأَة، في يوم دافئ، في آذار، انتهى الخلاف فجأَة حين وجدوا ياسمين وعمَّها، وأُمَّها، وشقيقين لها يطرقون بابهم.

- **ما أَوَّله شرط آخره رضا...قال العمُّ لجدِّي مبتسماً وهو يصافحه بحرارة.**

راح جدِّي يرحِّب بهم، أَمر جدَّتي بإعداد طعام الغداء لهم، أَرسلوا في طلب خالي، وحين رآها لم يُصدِّق عينيه.....

بعد ثلاثة أَسابيع تزوَّجا، وبعد عام بالضَّبط من زواجهما وقعت المجزرة.

عادة ما تُصبح المجازر تأريخاً تؤرِّخ لما قبلها وما بعدها، تصبح نقطة مرجعيَّة في التَّاريخ، وحين نتذكَّر حادثة ما، نقول إنَّها وقعت قبل المجزرة بكذا، أَو بعد المجزرة بكذا.

تاريخ دير ياسين هو تاريخ ما قبل المجزرة، فما بعدها أَصبح غامضاً، مبهماً، يتعلَّق بأَهل دير ياسين الَّذين غادروها، ولم يعد ثمَّة تاريخ للقرية ذاتها لسنوات طويلة، إذ ثمَّة ستار أَسود أُسدل على القرية، وعلى فلسطين الَّتي انحشرت خلف بوَّابة مندلبوم، والهدنة الطَّويلة، وما عاد بوسع أَحد أَن يدرك ماذا يجري خلف تلك الأَبواب.

خالي كان آخر الشُّهود على المجزرة، لكنَّهم قطعوا لسانه.

حين عاد عبد القادر الحسينيُّ من دمشق خاوي الوفاض بلا سلاح، كان يفهم أَنَّ تحرير القسطل حالة من الانتحار....لكنَّه كان يدرك أَهميَّة الأَمر، فالقسطل تعني عزل مئة وخمسين أَلف يهوديٍّ يعيشون في المستعمرات المحيطة بالقدس، في أَعالي الجبال، عن الإمدادات الَّتي تأتيهم من تلِّ أَبيب ما يعني استسلامهم.

نادى في المقاتلين، كان يريد أَن يجمع أَكبر عدد منهم ويقتحم القسطل، وكان خالي أَوَّل من لبَّوا الدَّعوة، مع بندقيَّة م1 الَّتي يقتنيها.

الطَّريق الفرعيَّة الَّتي كانت تربط دير ياسين بالقدس، ويافا، أَصبحت تمرُّ عبر مستعمرة غفعت شاؤول، لذا، مع انهيار الأَوضاع الأَمنيَّة صار لزاماً على أَهل القرية أَن يدوروا في طريقهم إلى القدس من طريق فرعيَّة وعرة طويلة تمرُّ عبر عين كارم. دير ياسين المحاطة بمئة وخمسين أَلف يهوديٍّ يعيشون في خمس مستعمرات تحيط بها، كانت تدرك أَنَّها أَضعف من أَن تقاوم إن قرَّر اليهود اجتياحها، كان الأَمر أَشبه بالوقوف أَمام دبَّابة بحجر، لذا، قرَّرت أَن توقِّع هدنة عدم اعتداء مع اليهود بعد محاولة اليهود اجتياحها أَوَّل مرَّة، واشتباك أَهلها معهم، وتدخُّل البوليس الإنجليزي،

كانوا يفهمون أَنَّ اليهود يطمعون في احتلالها، لموقعها الاستراتيجيِّ على طريق القدس–يافا، لذا آثروا الهدنة، كي يجنِّبوا القرية المجزرة الَّتي كانوا يفهمون أَنَّ اليهود يخطِّطون لها، وينتظرون الوقت المناسب لتنفيذها.

حين التحق خالي بعبد القادر الحسينيِّ مع بعض رجال القرية المسلَّحين، آثر سكَّان القرية عدم نشر الخبر، كي لا يعتبره اليهود نقضاً للاتِّفاقيَّة الَّتي تمَّ توقيعها بين الطَّرفين، وحين أُصيب خالي في معركة تحرير القسطل نقلوه إلى مشفى في يافا.

يوم المجزرة تحامل على نفسه وخرج من المشفى....حين سمع بما يجري في القرية، معصوب الجسد، كانت شظيَّة مدفع هاون قد أَصابته في كتفه.

وصل عين كارم عند العصر، فوجد بعض أَهل القرية قد تجمَّعوا قرب عين الماء، راح يستفسر منهم عمَّا يجري في الدَّاخل، فأَخبروه.

كان بعضهم قد وصلوا حفاة، أَشباه عراة، وبعضهم جرحى، حين خرجوا كانوا يظنُّون أَنَّهم سيعودون إلى القرية بعد ساعات فقط، لم يعتقدوا في أَيَّة لحظة أَنَّهم لن يعودوا إليها أَبداً.

فتَّش عن ياسمين فلم يجدها، كانت قد ولدت له طفلاً منذ ثلاثة أَشهر فقط.

فتَّش عن جدِّي، وجدَّتي، عن أُمِّي، وأَبي، وعمَّاتي بين النَّاجين، فلم يجد أَحداً منهم، راح يسأَل النَّاجين عنهم فلم يجد جواباً واحداً يشفي غليله، ويهدِّئ من روعه.

كلُّ المحاولات الَّتي بذلها النَّاس لإقناعه بالعدول عن قراره بدخول القرية باءت بالفشل.

قالوا له إنَّ دخوله إلى القرية مجرَّد انتحار لا غير، وإنَّه جريح، ليس بوسعه فعل أَيِّ شيء أَمام جيش من اليهود مدجَّجين بالسِّلاح، لكنَّه ظلَّ مصمِّماً على رأيه.

انتظر حلول الظَّلام، وتحامل على نفسه، تسلَّل إلى القرية صاعداً الجبل من جهة الغرب، متستِّراً بالأَشجار، عبر طريق وعرة بالكاد يستطيع رجل معافى عبورها.

كان يتخيَّل ياسمين وهي تنادي عليه، تلوذ به، تحتمي باسمه، فيشعر بالنَّار تندلع في صدره، كيف يمكن أَن يتركها مع طفله في أَياديهم؟ كيف يمكن أَلاَّ ينقذهما منهم، وهو

الَّذي كاد أَن يدفع حياته ثمناً لحبِّها؟ وشعر بالدُّنيا لا تتَّسع لفرحته حين أَنجبت له ولداً سمَّاه عبد القادر....

كان يريد أَن يضرب عصفورين بحجر واحد: سمَّاه تيمُّناً بعبد القادر الحسينيِّ الَّذي كان يرى فيه بطلاً أُسطوريَّاً، ومُدافعاً صلباً عن فلسطين، وفي الوقت ذاته كان يريد أَن يرضي أَباه الَّذي شعر بفرحة عارمة حين رأَى حفيده، وبفرحة أَكبر حين سُمِّي باسمه.

هل قتلوا الولد أَيضاً؟ عبد القادر، هل قتلوه قبل أَن ينبت له جناحان؟ قبل أَن ينبت له ريش ويتعلَّم الطَّيران؟ هل قتلوه؟ هل قتلوا ياسمين؟ هل ماتت؟ هل قُتلت؟ وأُمُّه؟ وأَبوه؟ وشقيقاته؟ وزوج شقيقته؟ وأَولادها؟ لم يكن يفهم بالضَّبط ما يجري في القرية، لم يكن يدرك حجم المجزرة.

اختبأَ في بيت قاسم حميدة، ومنه انتقل إلى بيت محمَّد جابر، ثمَّ تسلَّل إلى بيت علي حسين حامد، وبعد ذلك إلى بيت أَبي نعمة، كان يحاول أَن يفهم ما يجري في القرية، يطلُّ من النَّوافذ، يرى الجنود، والمصفَّحات، يشمُّ رائحة الدُّخان، ويرى النَّار وهي تلتهم بعض البيوت، كان اللَّيل قد تحوَّل إلى نهار.

سيعبر بساتين الفواكه، نزولاً نحو المسجد، ويرى ما حلَّ بأَبيه، وأُمِّه، وصوله إلى المسجد كان يعني أَنَّ بوسعه التسلُّل إلى بيته.

حاول أَلاَّ يحدث ضجَّة حوله، كي لا يلفت الانتباه، تحامل على جرحه وزحف بين الأَشجار، لكنَّه ما إن عبر بساتين الفواكه وأَصبح قبالة المسجد تماماً، حتَّى وجد فوَّهات البنادق تحاصره.

تفاجأَ، شعر في اللَّحظة الأُولى بالتَّوتُّر، والخوف، ترك بندقيَّته على الأَرض، عقد كفَّيه خلف رأسه، أَمروه بالنُّهوض فنهض.

انهالوا عليه بأَعقاب بنادقهم، راحوا يضربونه على رأسه، ويدوسون على جرحه، شعر برأسه يرتجُّ، ما عاد قادراً على الرؤية، غامت الدُّنيا فجأَة في عينيه، وحين أَفاق، حين فتح عينيه كان مقيَّداً إلى الشَّجرة.

ما الَّذي جرى بالضَّبط؟ أَين أَنا؟ وما الَّذي يحدث؟ ومن هؤلاء؟ وماذا يفعلون؟ وما هي هذه الجثث المكوَّمة على طول الطَّريق؟ ولماذا قُتلوا؟

كانت ذاكرته مشوَّشة تماماً، ولم يكن قادراً على أَن يعي ما يدور حوله.

حقَّقوا معه، ضربوه من جديد، كانوا يتوقَّعون هجوماً مضادَّاً يقوم به فلول المقاتلين الَّذين فرُّوا من دير ياسين، مع جيش الإنقاذ المرابط في عين كارم، ظنُّوا في البداية أَنَّه جزء من ذلك الهجوم، وأَنَّه جنديٌّ استطلاع، لذا كانوا يريدون أَن يفهموا منه خطَّة الهجوم، إن كان ثمَّة هجوم، وخطَّة.

فوجئوا حين ردَّ عليهم بالعبريَّة، ارتبك يهودا، ظنَّ للحظة أَنَّه أَلقى القبض على يهوديٍّ مثله، لم يكن ثمَّة ما يثبت أَنَّ الرَّجل ليس يهوديَّاً سوى ثيابه.

- يهوديٌّ؟
- عربيٌّ....بالكاد كان قادراً على الإجابة.
- ماذا جئتَ تفعل؟ كم مقاتل يوجد في عين كارم؟
- جئت وحدي ابحث عن زوجتي، وابني.

ضحكوا جميعاً، لم يكن ثمَّة من يتوقَّع تلك الإجابة، ضحكوا وضربوه من جديد، عذَّبوه، كانوا يريدون أَن يفهموا سرَّ عودته، لم يكن ثمَّة منهم من هو قادر على أَن يصدِّق أَنَّ عربيَّاً يمكن أَن يعود من أَجل زوجته، كانوا متأكِّدين أَنَّه جنديٌّ استطلاع، وكان عليهم أَن ينتزعوا الاعتراف منه بالقوَّة.

ضاعفوا الحراسات حول القرية بأَمر من يهودا، وأَضاؤوها بالقنابل المضيئة، وعادوا للاتِّصال بقوَّات الهاغاناه لإخبارهم بهواجسهم، وأَنَّ العرب ربَّما يُعدُّون لهجوم مضادٍّ لإعادة احتلال القرية.

- عبد القادر مات، والعرب مشغولون بموته....جاءهم الجواب.

لم يكن ثمَّة من انتبه في تلك اللَّحظة لتلك المرأَة الَّتي شعرت بالغيرة تنهش صدرها حين سمعت جوابه، وأَدركت أَنَّه جاء إلى الموت بقدميه من أَجل إنقاذ حبيبته.

كان اسمها حنَّا نوسين.

بدا الأَمر رومانسيَّاً بالنِّسبة لها، استثنائيَّاً، وسط تلك الجثث الَّتي كانت متناثرة على طول الطَّريق الرَّئيسيِّ للقرية، وبين البيوت، ووسط كلِّ ذلك الموت.
قرَّبت رأسها من شراغا بيليد وسأَلته:

- هل يمكن أَن تفعل مثله وتأتي لتنقذني من الموت لو كنتَ مكانه؟
- وهل تشكِّين في ذلك؟

لم تكن مقاتلة، كانت صحفيَّة تعمل لصالح صحيفة مانشستر غارديان، جمعتها بشراغا قصَّة حبٍّ بدأَت حين قابلته ذات يوم في تلِّ أَبيب، وأَجرت معه مقابلة لصالح الصَّحيفة، يومذاك قرأَت نظراته، وإِيماءاته، وحين دعاها لشرب فنجان قهوة في مقهى قريب في المساء لم تمانع.
كان شراغا يعمل في جهاز أَمن الهاغاناه، في الاستخبارات، وكانت تعرف ذلك، وتستغلُّه بين الحين والآخر لصالح عملها، فقد كان بوسعه أَن يذلِّل لها الصِّعاب، ويفتح أَمامها الأَبواب المغلقة.
حين علمت بخطَّة الهجوم على القرية أَصرَّت على الحضور، فمنعها.

- الأَمر أَخطر ممَّا تعتقدين.
- أُريد أَن أَذهب حتَّى لو متُّ هناك.
- لن أَسمح لك بالذَّهاب.
- سأَذهب.

اضطرَّ في نهاية الأَمر أَن يتنازل لها أَمام إِصرارها الشَّديد.
كانت إِرغون وليحي قد أَعدَّتا خطَّة الهجوم، وأَخبرتا الهاغاناه بها، وحين شعر المقاتلون عند الظُّهر بفشل الهجوم بسبب المقاومة الشَّرسة، استعانتا بقوَّات الهاغاناه الَّتي راحت تقصف القرية بالهاون، بناء على توجيهات المقاتلين في القرية، وأَرسلت نخبة من مقاتليها من البلماح لدعمهم.
كانت الهاغاناه قد انتدبت بعض أَعضاء جهاز استخباراتها لمتابعة ما يجري في القرية، وتصويره، وكان شراغا منهم.

اضطرَّ نتيجة لإصرارها أَن يستخرج لها بطاقة مجنَّدة في الهاغاناه، كي تتمكَّن من مرافقة المقاتلين، واشترط عليها أَلاَّ تنشر كلمة واحدة، أَو صورة، إلاَّ بعد رجوعها إليه، فوافقت.

لم تكن تتوقَّع هول المجزرة.

المجزرة جعلتها تصاب بالاكتئاب واليأس، وتقضي يومها ذاك وهي تتقيَّأُ من شدَّة الموت الَّذي رأته، والأَشلاء، والجثث الَّتي مُثِّل بها.

كان ذلك كلُّه قبل إحراق الجثث...

بعد سنوات طويلة سأَقرأُ رسائلها لخالي، وأَقرأُ رسائل ابنها درور، وسأَجدها تذكِّره بتلك اللَّحظة بالذَّات، ساعة ربطوه إلى الشَّجرة، وسأَلوه، فأَجاب أَنَّه جاء من أَجل ياسمين، زوجته، وستخبره بتلك الغيرة الَّتي شعرت بها تنهشها، وجعلتها تتمنَّى لو كانت هي ياسمين، حتَّى لو كانت جثَّة بين تلك الجثث الكثيرة.

حتَّى شراغا بيليد، عشيقها، كان يفضِّل الهاغاناه عليها، وكان هو بالذَّات في نهاية المطاف سبب مأساتها.

كان يعدها بالزَّواج فور قيام الدَّولة، وبعد قيام الدَّولة أَرسلها إلى أَوَّل مشفى للمجانين يُقام في "إسرائيل"، وللمفارقة كانوا قد أَنشؤوه في قرية دير ياسين، اقتطعوا جزءاً من بيوتها، وجعلوه مشفى للأَمراض العقليَّة.

عذَّبوه بطريقة لا يمكن لبشر أَن يحتملها، كانوا ينكؤون الجرح، يغرس أَحدهم فيه فوَّهة المسدَّس، يضغط، يلفُّه يميناً ويساراً، وخالي يصرخ، والدَّم يتدفَّق من جرحه، يغيب عن الوعي، ويعود.

- كم عددكم...وما الَّذي تخطِّطون لفعله؟ هجوم؟
- القرية لا تحتمل جثثاً أُخرى....قال شراغا ليوشع، بعد أَن لجأَت هي إليه، وراحت ترجوه وهي تبكي، وتتوسَّل إليه، وهو يضحك ببرود.

- هل أَعجبك العربيُّ؟ هل تريدين قضاء ليلتك معه؟ ماذا تعني جثَّة أُخرى فوق هذه الجثث؟ لماذا تدافعين عنه؟ ما الَّذي تريدينه؟ ماذا لو كانوا بالفعل يعدُّون لهجوم مضادٍّ لإعادة احتلال القرية؟ يسأَلها شراغا.

أَمس مساء كان قد قابل يوشع زتلر، قائد ليحي في القدس.

- ماذا خطَّطتم لفعله في القرية؟
- الانتقال إلى القرية التَّالية.
- ماذا سيحصل للسكَّان المحلِّيِّين؟
- لا نتركهم هناك.
- ماذا ستفعلون بهم؟ تهجِّرونهم؟
- لا...سنبيدهم، سنجعل القرية أُمثولة تتحدَّث بها كلُّ القرى، سنعيد مجد يوشع وأُورشليم، سنفعل ما فعله يوشع بأَريحا.
- وإذا نجا أَحد منهم؟
- نقابله مرَّة أُخرى، في قرية أَو مدينة أُخرى، ونقتله، لا نريد شهوداً على ذلك....
- بل نريد بعض الشُّهود، نريدهم أَن ينقلوه عبر كلِّ المدن والقرى.

هي الَّتي أَنقذت حياته من الموت.

كاد الأَمر أَن يتحوَّل إلى معركة بين بعض رجال الهاغاناه، ورجال ليحي وإرغون، اختلفوا على قتل خالي، واختلفوا على تقسيم الغنائم، واختلفوا على دفن الجثث، كان ممثِّل الصَّليب الأَحمر الدَّولي، دو رينيه، مصمِّماً على دخول القرية رغم كلِّ التَّهديدات الَّتي نقلها اليهود له، وإخباره بأَنَّهم لا يضمنون سلامته.

اتَّصل شراغا بقيادة الهاغاناه، فاضطرَّ يوشع للتَّنازل.

- عليكم التخلُّص من الجثث قبل حضوره، وقبل أَن تغادروا القرية، لن تغادروها قبل دفن الجثث.

- نحن رأس حربة، لا وقت لدينا للدَّفن، نحن سنقتل، وعليك أَن تؤسِّس فرقة تعمل خلفنا وظيفتها الدَّفن.

اتَّصل شراغا بقيادة الهاغاناه، فاضطرَّ يوشع للتَّنازل.

راحوا ينهبون محتويات البيوت، ولكي لا يكلِّفوا أَنفسهم عناء دفن الجثث حاولوا إحراقها.

حياة جديدة كُتبت لخالي، لكنَّها حياة مليئة بالمرارة، والبؤس والشَّقاء.

بعد موت ياسمين، ودفنه لها، أَمسكوا به، فتحوا فمه عنوة، وضعوا داخله منصباً معدنيَّاً، سحبوا لسانه من فمه إلى الخارج، وقطعوه بسكِّين، ورموه لأَحد الكلاب الَّتي كانت تحوم حول بقايا الجثث المتناثرة حولهم، ثمَّ راحوا يضربونه على رأسه بأَعقاب البنادق حتَّى أُغمي عليه.

قال يوشع لشراغا: لا نريدُ شهوداً على ما جرى للجثث، هذا المعتوه كان بوسعه خداعي، كان بوسعه أَن يخدعني ويخبرني أَنَّه يهوديٌّ لكنَّه لم يفعل، اعترف ببساطة أَنَّه عربيٌّ، وهو يعرف أَنَّ اعترافه موت، أَترى الغباء العربيَّ؟ كيف يصرُّون على الغباء هؤلاء العرب؟

- اسأَله ربَّما تجد الجواب عنده....أَجاب شراغا بتهكُّم.

ضحك يوشع...

- ما عاد له لسان.
- ماذا تتوقَّع من رجل دخل القرية وسط المذبحة، والنَّاس يهربون منها؟ قال شراغا وهو يدير ظهره ليوشع، ويغادر.

حين دخل لواء "الغدناع" القرية فكُّوا وثاق خالي، وطلبوا منه مغادرة القرية، لكنَّه رفض.

-5-

كان جدِّي حين داهموا المسجد يجلس أَمام المحراب غارقاً في أَذكار الصَّباح.
سمع وقع خطواتهم خلفه، ستَّة جنود، أَدار ظهره، فوجد فوَّهات البنادق تحاصره، انتفض، وقف على قدميه.

- هذا بيت الله ولا يحقُّ لكم دخوله بأَسلحتكم، وأَحذيتكم.
- دع ربَّك إذن ينقذك من الموت....قال أَحدهم، ثمَّ أَطلق رصاصتين عليه، فسقط يتخبَّط بدمائه، لكنَّه لم يمت.

أَتباع جدِّي في دير ياسين كانوا قلَّة لا يتجاوزون العشرين، ومع ذلك، حين يعقد الصُّوفيُّون حلقات الذِّكر في بعض المناسبات، مع حضور ضيوف إلى المسجد من أَنحاء متفرِّقة من فلسطين، ومصر، والأُردنِّ، ولبنان، وسوريَّة، يهبُّ أَهل القرية، رجالاً، ونساء، وأَطفالاً، يتجمهرون حول المسجد، خصوصاً في أَيَّام الصَّيف، يحملون فراشهم، وطعامهم، ويبقون حتَّى ساعة متأَخِّرة في العراء يشاهدون كرامات الدَّراويش، وأَولياءهم الصَّالحين.

في لحظات ما تشعر أَنَّهم لا يخضعون لقوانين البشر.

يرقصون بالسُّيوف، يدورون بعضهم حول بعض وقد انتقلوا تماماً إلى عالم آخر، يضعون السُّيوف الحادَّة على أَلسنتهم وهم جالسون على الأَرض، يصعد رجل بوزنه فوق السَّيف، يخطو بقدميه على طرفيه، ينقِّلهما بين رجل وآخر، وسيف وآخر، بحذر، يغرسون أَسياخ الحديد في وجوههم، وأَعناقهم، وبطونهم، يضعون السُّيوف على أَعناقهم وهم ممدَّدون على الأَرض على ظهورهم، يعود الرَّجل للتنقُّل فوقها بقدميه، يضغط عليها، يقفز فوقها، يتنقَّل بين عنق وعنق، بين صدر وصدر، لكنَّها تبدو معطَّلة تماماً، لا تجرح.

كانوا يسيرون فوق الجمر حفاة دون أَن تظهر على وجوههم أَيَّة ملامح للأَلم.

كرامات!

أَصواتهم تعلو بالتَّسابيح في هدير يشبه هدير خليَّة النَّحل، الهموم تتبخَّر، تتلاشى، الأَلم يفقد معناه، الدُّنيا تصغر حتَّى تصبح مجرَّد نقطة في العدم.

- لو سمعت كلامي لما استطاعوا أَن ينالوا منك، ويقطعوا لسانك....سيقول جدِّي ذلك لخالي بعد سنوات طويلة أَكثر من مرَّة، وهو يعود ليروي قصَّة عودته إلى الحياة بعد موته للمرَّة الأَلف....لكنَّ خالي يهزُّ رأسه ولا يجيب، فهو أَصلاً كان قد أَصبح عاجزاً عن الكلام.

فضيلة الصُّوفيِّ أَنَّه لا يعبأُ بالحياة، ولا يعرف الخطَّ الفاصل بين الحياة والموت، يعبره مبتسماً، متحمِّساً، مندفعاً، محموماً، ينفصل عن نفسه، يترك جسده خلفه ويذهب في رحلته للبحث عن الله، وحين يصل، حين يتماهى فيه، منه، عنه، له، لا يعود ثمَّة ما بوسعه أَن يأخذ منه شيئاً، أَو يضيف شيئاً إليه.

رصاصتان في بطنه لم تمنعاه من العودة إلى الحياة.

ظلَّ طوال ذلك النَّهار وحده في المسجد، جسده ظلَّ أَمام المحراب، وروحه طافت السَّماء، غابت، صلَّت هناك، تفتَّتت، تشظَّت، تبخَّرت، ثمَّ عادت فجأَة إلى جسده مع دخول أَذان المغرب.

حين كان خالي يزحف صاعداً نحو دير ياسين، كان جدِّي يزحف هابطاً نحو عين كارم، ربَّما التقيا في نقطة ما، ربَّما سمع أَحدهما صوت أَنفاس الآخر، ولهاثه، ربَّما كان أَحدهما بعيداً عن الآخر أَمتاراً فقط، وظنَّ أَنَّه عدوُّه.

كأَنَّ الرَّصاصتين ذابتا، وسالتا من جسده عبر مسامات الجلد، هاتف كان يأتيه من السَّماء، هاتف كان يقول له إنَّ ثمَّة حياة بقيت له ليعيشها، وإنَّه لن يموت، وإنَّ أَجله لم يأت بعد، وإنَّ عليه أَن يهبط الوادي.

على أَطراف عين كارم ثمَّة من النَّاجين من كانوا يتربَّصون في العتمة، ينتظرون وصول أَيِّ ناج، ينتظرون أَقرباءهم، أَحبَّتهم، أَولادهم، بناتهم، آباءهم، أُمَّهاتهم،

جيرانهم، كانوا يبكون، ينتظرون ويبكون، ينتظرون ويتأَمَّلون، ينتظرون شيئاً لا يأتي، ينتظرون موتى ما كان بوسعهم العودة إلى الحياة مثل جدِّي.

كرامات.....ثمَّة من يقول وهو يسمع الحكاية.

- **هل الرَّصاصتان في بطنك الآن؟**
- **لا أَشعر بهما....يقول جدِّي.**

كان يلفُّ نفسه ببطَّانيَّة من البرد الَّذي يهاجم القرية في اللَّيل، وبين الحين والآخر يرتجف.

استقبلوه بتلهُّف، راحوا يسأَلونه عمَّا يدور في القرية وهو لا يجيب، كان منفصلاً عن نفسه، غائباً في عالم آخر، حملوه إلى عين كارم، ومن هناك ليلاً إلى القدس، إلى المشفى، حيث بقي أُسبوعين بعد أَن استخرجوا الرَّصاصتين من بطنه.

لم يكن ثمَّة من يعرف مصير خالي، لذا عدُّوه مع الشُّهداء.

النَّاجون من العائلة كانوا أَربعة فقط: جدِّي، وأُمِّي، وخالي، وأَنا.

أَبي قُتل، وعمَّاي، وجدِّي لأَبي، وجدَّتي لأَبي، وأَولاد وبنات عميَّ، وعمَّتي، وجدَّتي لأُمِّي، وشقيقي التوأم، وخالاتي الثَّلاث، وزوجة خالي ياسمين، وطفلها عبد القادر، وخالي ظلَّ مختفياً لأَعوام، ظنُّوه قُتل، لكنَّهم فجأَة وجدوه يطرق باب البيت في مخيَّم الزَّرقاء.

هند الحسينيُّ تبنَّت أَيتام دير ياسين، وأَسكنتهم في غرفتين في سوق الحصر، وقدَّمت لهم الطَّعام والشَّراب، وراحت تداوي جراحهم الَّتي خلَّفتها المجزرة على الأَجساد وفي الأَرواح.

حين خرج جدِّي من المشفى كان عليه أَن يجد مكاناً يؤوينا، كانت أُمِّي قد خرجت قبله، واستقرَّت مؤقَّتاً في بيت عمَّتها، شقيقة جدِّي التَّوأَم الَّتي كانت متزوَّجة من رجل من اللدِّ، وتعيش معه هناك، وكانت قبل ذلك قد تركتني عهدة عندها حين كانت في المشفى، وحين خرج جدِّي حملنا إلى الزَّرقاء.

الشُّيوخ، أَصدقاؤه الشُّيوخ الَّذين زاروه في المشفى اقترحوا عليه فترة نقاهة، أَن يخرج من فلسطين إلى مصر أَو الأُردنِّ بضعة أَيَّام ريثما تنسحب بريطانيا، وتنتهي الحرب، ويعود إلى بيته، اقتنع بالفكرة، وفضَّل الذَّهاب إلى الأُردنِّ لقربها، فاقترحوا عليه هناك أَن يمكث تلك الأَسابيع القليلة في مسجد الدَّروايش....في بيت صغير يقع بجانب المسجد.

أَيَّام فقط وتعود، قالوا، وهو صدَّق الكذبة.

الجيوش العربيَّة ستدخل فلسطين بعد انسحاب بريطانيا، وستحرِّرها من اليهود، قالوا، وهو صدَّق الكذبة.

لم يكن يعرف أَنَّنا سنكون طلائع اللَّاجئين، هو، وأُمِّي، وأَنا، لم يعرف.

اللَّاجئون هم من لحقوا بنا، هم من استقرَّ بهم المقام في الزَّرقاء، وبنوا المخيَّمَ حول المسجدِ والمقبرةِ الملاصقةِ له.

الفصل الثَّاني: المخيَّم

-1-

الزَّرقاء مدينة المهاجرين....مدينة الجنود، والمهاجرين.

لم تكن المدينة مدينة بالضَّبط، بعض العائلات الشِّيشانيَّة الَّتي فرَّت من القوقاز كانت قد استقرَّت فيها، حول السَّيل، عام 1902، ثمَّ أَقام العثمانيُّون محطَّة سكَّة حديد الحجاز على أَطرافها، ما جعلها محطَّ أَنظار الإنجليز بعد احتلالهم للمنطقة، فأَنشؤوا فيها معسكرات للجيش، قرب محطَّة سكَّة الحديد، ما دفع بعض الجنود إلى الاستقرار فيها، ثمَّ حطَّ بعض اللَّاجئين الفلسطينيِّين رحالهم في مخيَّمها، وبدأَت المدينة بالتَّوسُّع.

النَّاس كانوا مذهولين، لم يكن ثمَّة منهم من يستوعب ما جرى، كانوا ينتظرون انتهاء الحرب كي يعودوا إلى بيوتهم في فلسطين، انتظروا طويلاً، والحرب أَصبحت هدنة بين الطَّرفين، انتظروا أَكثر، ملُّوا الانتظار، وربَّما كانوا بحاجة إلى جرح آخر، صدمة أُخرى كي يستوعبوا الأَمر، كانوا بحاجة إلى هزيمة أُخرى، إلى مشهد أَفواج النَّازحين عام 1967 ليصدِّقوا ما جرى معهم عام 1948.

ستبدو المعادلة صعبة للوهلة الأُولى حين تدرك أَنَّ العالم دائماً بحاجة إلى مآس بشريَّة تتجلَّى من خلالها صفاته الحميدة، العطف، والشَّفقة، لذا كان لزاماً عليه دائماً أَن يخلق فجوة ما، محرِّكاً داخليَّاً يضمن بعض المآسي الَّتي بوسعه أَن يستعرض إنسانيَّته من خلالها...

في العالم لا مكان للضُّعفاء، ونحن كنَّا ضعفاء.

ربَّما أَدرك اليهود تلك المعادلة مبكِّراً، منذ زمن بعيد، لذا أَصبحنا نحن الزَّائدين عن حاجة هذا العالم بين ليلة وضحاها.

لم أَع تلك المرحلة الَّتي كان المخيَّم فيها خياماً مصفوفة من أَوَّل قدرة العين على الإبصار حتَّى آخرها.

كنتُ أَصغر من أَن أَتذكَّر تلك المرحلة.

حين بدأتُ أَعي الحياة كانت بيوت المخيَّم قد بُنيت من طوب أَحمر مخلوط بالقشِّ، وسقوفها كانت من الخوص المحمول على بعض العوارض الخشبيَّة.
التحقتُ بمدرسة وكالة الغوث في المخيَّم حين بلغتُ السَّابعة، ثمَّة مدرستان للذُّكور، واثنتان للإناث، لكنَّها لم تكن قادرة على استيعاب أَبناء اللاَّجئين الَّذين راحوا يتدفَّقون إلى المدارس، ما حدا بوكالة الغوث إلى بناء مجموعة أُخرى من المدارس.
حين أَعود من المدرسة، وقبل أَن أَذهب إلى البيت أُعرِّج على المسجد، أُقبِّل ظاهر كفِّ جدِّي، أُلازمه ساعة أَو ساعتين، ثمَّ أَعود إلى أُمِّي.
ما يميِّز جدِّي وجهه الأَبيض المستدير الَّذي يميل إلى الحمرة، وابتسامته الدَّائمة، وعمامته البيضاء الَّتي يفرد فوقها حطَّة بيضاء تتدلَّى على صدره من الجانبين، وكراماته الَّتي كان النَّاس لا يتوقَّفون عن الحديث عنها، خصوصاً إصابته تلك في دير ياسين، ونجاته، حتَّى وصل الأَمر ببعض النَّاس إلى الاعتقاد بأَنَّ بوسعه إحياء الموتى لو أَراد.
ربَّما كانوا بحاجة إليه، ربَّما كانوا يهربون من الواقع به، ربَّما كان الواقع أَقسى من أَن يحتملوه، لذا كان عليهم، بطريقة ما، أَن يجدوا وسيلة للهروب في الغيب، وكان جدِّي جسرهم الَّذي اعتلوه كي يكذِّبوا الواقع.
كرامات...
تنفجر اللُّغة فجأَة فتتحوَّل إلى هلوسات، كي تخاطب الله، كي تنصهر فيه، وتعود إليه، منه، لا تعود لغتك قابلة لاحتواء ما تريد، وصولك يعني أَنَّك لم تعد أَنتَ كما كنتَ، وصولك يعني أَنَّك تبدَّدتَ، ذبتَ، انصهرتَ، تفتَّتَ، تبخَّرتَ، صعدتَ كغيمة ثمَّ عدتَ لتسقط نقيَّاً مثل ماء المطر.
يمسك بيدي الصَّغيرة وأَنا أَلهث وأَركض كي أَلحق بخطواته، نسير بجانب المقبرة، قبل بناء السُّور حولها، في اللَّيل، أَسمع حفيف شجرات السَّرو الَّتي تسيِّجها، والرِّيح تحرِّكها، فتبدو على ضوء القمر كالأَشباح، أَشعر بالرُّعب وأَنا أُحدِّق إلى القبور، وصومعة الولي عبد الله الَّتي بُنيت في منتصف المقبرة، أَتمسَّك بكفِّه أَكثر.

- هل بوسعنا أَن نرى الله يا جدِّي؟
- الله فينا يا بني.
- أَلم تقل لي إنَّ الله لا يموت؟
- بلى....
- كيف نموت إذن وهو فينا؟
- الجسد هو الَّذي يموت، الجسد من تراب، خلقه الله من تراب وأَودع نفحة منه فيه، حين يموت الجسد، تصعد الرُّوح إلى السَّماء.
- هل بوسعنا أَن نرى الرُّوح؟
- نراها، طبعاً، حين نسمو فوق الجسد نرى الرُّوح.
- هذا يعني أَنَّنا نرى الله؟
- هذا يعني أَنَّنا نرى الله....كان صوته يشي بالسَّعادة، بابتسامة من ذهب إلى آخر سماء وعاد منذ لحظات فقط.
- عمَّ ستسأَله حين تراه؟ سأَلني.
- أُريد أَن أَطلب منه ساقاً لأُمِّي بدل ساقها الخشبيَّة.

ورثتُ عن جدِّي طول القامة، والعينين الخضراوين، والوجه المستدير، المدبَّب قليلاً عند الذَّقن، والأَنف البارز، الضَّخم، وشحمة الأُذن المتناهية في الصِّغر، وتدويرة الحاجب، وكثافته، ومفتاح البيت في دير ياسين.

أَذهب إلى النَّوم باكراً قبل الجميع، يخيفني ظلام اللَّيل، لم تكن الكهرباء قد وصلت المخيَّم بعد، ما إن تغطس الشَّمس خلف الجبل المقابل، وينسحب الغروب ببطء حتَّى يغرق المخيَّم في الظَّلام، تُضاء "اللوكسات" الَّتي تعمل على الكاز في البيوت، تعلِّق أُمِّي "اللوكس" في قضيب معدني معقوف عند نهايته، يتدلَّى من السَّقف، تكبر الظِّلال وتصغر فوق الجدران كلَّما تحرَّك أَحد من مكانه، تتداخل أَحياناً فلا تعود تميِّز أَشكالها، أَضع رأسي على الوسادة، أَنام إلى جانب أُمِّي، أَتأَمَّل الظِّلال وهي تتحرَّك على الجدران فتثير في نفسي الخوف، خصوصاً حين تختلط حركتها مع مواء القطط

في الخارج وهي تنوح، أَو نباح الكلاب وهي تلاحقها، أَتقلَّب في فراشي، أُغمض عينيَّ، أَبحث عن حلم يأتيني فيه الله كي أَسأَله ساقاً لأُمِّي بدلاً من ساقها الخشبيَّة الَّتي كانت تجعلني أَشعر بالشَّفقة عليها، أَبحث عن جسدها كي أَحضنه لأَشعر بالأَمان، أَحضنه، أُطوِّقه بيدي، أَشعر بدفء جسدها، لكنِّي لا أَشعر بالأَمان.

كنتُ أَجترُّ رواياتها عن دير ياسين....تلك الَّتي كانت ترويها لي قبل النَّوم، وأَبكي في السرِّ، في العتمة، وأَنا أَشعر بالوحدة.

الوحدة قاتلة، وأَنا وحيد، وحيد، والظَّلام مُرعب، وأَنا قطعة من الظَّلام، يتصاعد صوت جدِّي فجأَة في جوف اللَّيل وهو يصلِّي، فيبعث في أَوصالي شيئاً من الدِّفء، والثِّقة، لكنِّي فجأَة أَصرخ، فتهبُّ أُمِّي نحوي، أُمسك برأسي بكفيَّ وأَضغط عليه، أَشعر به يكاد ينفجر، لحظات، وينتهي كلُّ شيء....

- ما بك؟
- موجوع....رأسي...هنا..
- أَين؟
- في الخلف.

ينهي جدِّي صلاته على عجل ويهرع نحوي....

- ما به؟
- رأسه يوجعه.

يمسك به، يضع كفَّه الكبيرة عليه، أَشعر بدفئها، يقرأُ عليه آيات من القرآن....فأَنام.

أَن تكون سويَّاً يعني أَن تكون مثل بقيَّة أَسنان المشط، مثل الأَسنان الأُخرى تماماً، صورة مكرَّرة عنها، فإذا ما شذذت قليلاً ستبدو مخيفاً، تتحرَّش بجلدة الرَّأس كدبُّوس مدبَّب، لذا، فأَسهل الحلول أَن تنتزع من مكانك، ويُلقى بك إلى سلَّة المهملات.
أَنا لم أَكن سويَّاً ذات يوم أَبداً، لذا، ربَّما انتُزعتُ وأُلقي بي إلى سلَّة المهملات.
أَكثر ما كان يثير المعلِّم هو غبائي.
كان يعلِّمنا الكتابة، ثمَّ يأتي ليقف فوق رأسي، خصِّيصاً، فيرعبني، كنتُ أَكتب الكلمات بالمقلوب، وفجأَة أَجد العصا تنزل على رأسي، فأَنتفض، وأَصرخ، وأَبكي، يصرخ في وجهي: يا حمار، متى ستتعلَّم الكتابة، والقراءة، والحساب؟
ربَّما يئس منِّي أَخيراً، وما عاد يوليني اهتماماً، أَصبح يتعامل وكأَنَّني غير موجود، يتجاهلني تماماً، وحين يلتقي بجدِّي، هو أَو مدير المدرسة، في المسجد، بعد الصَّلاة، أَشعر بالخوف، وأَعرف أَنَّني سأَكون مادَّة الحديث، وأَنَّني سأَدفع ثمن غبائي بعد لحظات حين أُصبح مع جدِّي وجهاً لوجه.
يبذل جدِّي مجهوداً مضاعفاً معي، يشرح لي الدُّروس، يعلِّمني الكتابة، وقراءة القرآن، ثمَّ يصاب في نهاية المطاف باليأس، ويستسلم، يخبرني أَنَّه سيشتري لي بغلة بعد سنَتين أَو ثلاث كي أَعمل عليها بدلاً من إضاعة وقتي في الدِّراسة، وكان ذلك في الحقيقة يفرحني.
أَصحو على صوت ساق أُمِّي الخشبيَّة وهي تدقُّ الأَرض الأَسمنيَّة الملساء، تدقُّ، تدقُّ، تدقُّ بلا توقُّف.
تبدأُ مع أَذان الفجر، تصحو من نومها، تثبِّت قدمها الخشبيَّة الممدَّدة إلى جانبها مثل جثَّة من بقايا جثث دير ياسين، وتنهض، تتوضَّأُ وتصلِّي، ترفع يديها بالدُّعاء الوحيد الَّذي كانت لا تتقن سواه:

سبحان من أَصبح الصَّباح، سبحان من سيَّر الجناح، سبحان العزيز الفتَّاح.....ثمَّ تبكي، في نقطة ما يتحشرج صوتها وتبكي، تتمالك نفسها بصعوبة، وتعود إلى صلاتها، وبعد ذلك يبدأُ ماراثون الحياة: تنقل الماء من الحنفيَّات العامَّة الَّتي تبعد عنَّا شارعين، وتملأُ زيرين من الفخَّار كبيرين، ثمَّ تعجن، وتخبز، وتطبخ، وتشطف، وتجلي، وأَحياناً تحملني وتذهب مع بعض الجارات إلى السَّيل، يجلسن قرب نبع ماء ساخن، يغسلن الثِّياب، ويجلين الأَواني، ويعدن عند العصر.

ثمَّة دائماً وسط ذلك كلِّه وقت مستقطع للصَّلاة، أَو لزيارة جارة أَو جارات.

حين تخلع تلك السَّاق، قبل النَّوم، بعد يوم مضن، أَكون متأَهِّباً لخدمتها، أُهيِّئ نفسي لأَيِّ طلب تطلبه منِّي، أَستنفر، وحين تفعل أَقفز راكضاً، وأَعود قبل أَن يعود طرفها إليها.

- جنيٌّ تقول مبتسمة، فيعجبني الوصف، وأَشعر بالزَّهو.

المجزرة كانت حكايتنا اللَّيليَّة الَّتي لا تنتهي أَبداً.

كان ذلك قبل وصول الكهرباء إلى المخيَّم.

كانت تتذكَّر كلَّ شيء، كلَّ التَّفاصيل، كلَّ البيوت وساكنيها فرداً فرداً، والأَشجار، والطُّرقات، والسَّناسل، والمقبرة ومن فيها، والمحاجر، والكسَّارات، ومدرسة الذُّكور، والإناث، والمسجد، والبئر، والكبَّانيَّات.

الماضي حين يصبح مجزرة يتحوَّل إلى ماض آخر، مختلف، يضيق به الزَّمن، يضيق حتَّى لا يعود قادراً على استيعابه، ولأَنَّ الزَّمن هو الزَّمن، لا يتوقَّف، ولا يعود إلى الخلف، ولا يعير بعضه بعضاً شيئاً، صار لزاماً على الحاضر أَن يستوعب جزءاً من الماضي، ولأَنَّ الحاضر بالكاد يستوعب ما يجري فيه، تراه يزدحم فجأَة بالوجود، بما حُشر فيه من أَحداث، وينفجر.

رائحة الماضي تختلط بالحاضر...الحاضر يصبح وجهاً من وجوه الماضي، جزءاً لا يتجزَّأُ منه، قطعة لا يمكن فصلها عنه.

كيف يمكن أَن أَخرج من الماضي، وأَنا الماضي؟

في الماضي كانت الأَرض خصبة خصبة، والسَّنابل أَطول من رجل يجلس فوق جمل، والبطِّيخة بثلاث، والزَّيتون معمَّراً من أَيَّام الرُّومان، لذا ترى زيته يضيء ولو لم تمسسه نار، والقمر كان غير القمر، والشَّمس كانت غير الشَّمس، والنَّاس أَبسط، والعالم أَصغر، والرُّوح أَنقى، والحياة كانت أَجمل.

هل كان الأَمر مجرَّد انحياز لفلسطين فقط، أَم كان أَبعد من ذلك، وأَعمق؟

الزَّمن فكرة، شعور، مفهوم مبهم، والحاضر كذبة، ستقول الآن أَفعل كذا، وما إن تنتهي من كلامك حتَّى يصبح الفعل، وكلامك جزءاً من الماضي، وكأَنَّ الزَّمن سيل من الماء، نهر سريع الجريان، يأخذ الحاضر معه كلَّ لحظة بلا توقُّف.

كان أَبي يحرس القرية ليلة المذبحة مع من يحرسونها جهة الشَّرق، جهة الكبَّانيَّات، مع عميَّ، وجدِّي حسن، جدِّي لأَبي، ولم يعد أَحد منهم من هناك.

استشهدوا واحداً إثر الآخر وهم يقاتلون، جدِّي كان يقاوم مجموعة مردخاي بن غوزيهو الَّتي احتلَّت مدرسة الذُّكور، وعمَّاي وأَبي كانا مع من يحاولون منع تقدُّم مصفَّحة منشه آيخلر، يتمترسون في بيت أَحمد رضوان، وحين استُشهد عمَّاي انسحب أَبي إلى بيت الشِّيخ محمود صلاح، واستُشهد بعد الظُّهر فيه.

لم ينج منهم أَحد.

- **هل أَصبح خالي على هذه الحالة منذ ذلك الوقت؟**
- **ما به خالك؟**
- **نصف مجنون.**
- **إخرس، عقل خالك يزن بلداً بأَكملها.**

كنتُ أَرى في صمته وسرحانه جنوناً، وكان يرى في غبائي لعنة إلهيَّة ما.

قبل عودته، كانت قد عثَرَتْ على صورته في صحيفة ما، أَجنبيَّة، مصادفة، فردتها إحدى الجارات على رفٍّ خشبيٍّ تضع عليه الأَواني بعد غسيلها، كانت الصُّورة تتدلَّى من جانب الرفِّ ما جعلها تنجو مصادفة من مذبحة الطَّناجر والصُّحون تلك المبلَّلة بالماء، قفزت نحوها وهي تصرخ وتولول وكأَنَّ خالي ورفاقه يذبحون من جديد أَمام

عينيها، كان عبد القادر الحسينيُّ يتوسَّط خالي وبهجت أَبي غربيَّة، خالي على يمينه، وبهجت على يساره، وجميعهم بسلاحهم.

يومذاك راحت تؤنِّب الجارة، والجارة تعتذر منها، قصَّت الصُّورة وظلَّت تحتفظ بها لأَسابيع في صدرها، تخرجها، وتعرضها أَمام النَّاس، ثمَّ في نهاية المطاف، حين شعرت بها تكاد تهترئ وضعتها في إطار بنيٍّ، وأَغلقت عليها بلوح زجاج، وعلَّقتها إلى جانب المفتاح....

لم تصدِّق عودته حين عاد، لا هي، ولا جدِّي.

بدا مثل شبح يقف أَمام الباب، هزيلاً، رثَّ الثِّياب، وشعره أَبيض، ولحيته مهملة، وحذاؤه مهترئ، ونظراته زائغة مثل نظرات رجل مجنون.....

هل كان ذلك هو خالي نفسه؟ كيف؟ كنتُ لا أُصدِّق منْ أَراه، أُقارن بينه وبين الصُّورة فأُصاب بالإحباط.

ما إن سقطت عيناها عليه حتَّى خرَّت على الأَرض مغمى عليها.

بدا مثل شبح عاد من الموت، كانوا قد أَبَّنوه، صلُّوا عليه صلاة الغائب مع بقيَّة ضحايا دير ياسين الَّذين دُفنوا في مقابر جماعيَّة، وفجأَة عاد، عاد من الموت.

كان يومذاك أَشبه بمومياء محنَّطة.

جدِّي بكى يومذاك كما لم يبك من قبل أَبداً، وعقدت المفاجأَة لسانه.

حين سأَله أَين أَمضى كلَّ هذا الوقت، مدَّ لسانه أَمام جدِّي، ما جعل جدِّي حين رأَى لسانه ينهار تماماً، ويحضنه ويبكي على كتفه كالأَطفال، بينما ظلَّ خالي يقف جامداً مثل حجر.

-3-

حالة متواصلة من الجنون كان المخيَّم.

كيف يمكن لك أَن تفيق فجأَة على الحياة فتجد أَنَّك لستَ أَنتَ، وبيتك ليس بيتك، وأَرضك ليست أَرضك، ومدينتك ليست مدينتك، وأَهلك ليسوا أَهلك، وجيرانك ليسوا جيرانك؟ ثمَّ تحافظ بعد ذلك ببساطة على توازنك؟

ربَّما تطلَّب الأَمر سنيناً طويلة حتَّى استطاع الجميع استيعاب الواقع.

حين تدفَّق موظَّفو وكالة الغوث الدَّوليَّة إلى المخيَّمات، ليحصوا الأُسر من أَجل إصدار بطاقات المؤن انقسم النَّاس إلى قسمين متناقضين: بعضهم راح يتحدَّث عن بطاقات بديلة عن البيوت والأَراضي الَّتي استولى عليها اليهود بقرار من الأُمم المتَّحدة، واعتراف العالم، وسكنوا فيها، كي يدفع لهم العالم أَثمان تلك البيوت، وهم قلَّة قليلة، والآخرون رأَوا في المسأَلة عكس ذلك تماماً، راحوا يدافعون عن الفكرة، ويقولون إنَّها مجرَّد إحصاء لأَعداد اللَّاجئين من أَجل إعادتهم بشكل منظَّم كلٌّ إلى بيته.

لم يكن الأَمر هذا ولا ذاك.

النِّساء اللَّواتي رحن يحقِّقن مع الموظَّفين اكتشفن أَنَّ الأَمر كلَّه مرتبط بتقديم المساعدات، وإصدار بطاقات خاصَّة لهذه الغاية، سُمِّي الأَب في البطاقة ربَّ العائلة، ما أَثار حفيظة بعض المتديِّنين، وجعلهم يقدِّمون احتجاجاً على الأَمر، على رأسهم جدِّي، لكنَّ أَحداً لم يلتفت إلى احتجاجهم، وسُمِّي البقيَّة أَنفاراً.

حين أَدركن حقيقة الأَمر رحن يستعرن من بعضهنَّ البعض الأَولاد، من أَجل زيادة عدد الأَنفار، وبالتَّالي زيادة الحصص الَّتي سيقدِّمونها لهم من الأَرزِّ، والسكَّر، والسَّمن، والطَّحين، والزَّيتِ، والمعلَّبات، والملابس.

في تلك الأَيَّام بالذَّات عاد أَمين، شقيقي التوأَم إلى قيد الحياة، وأَصبحنا، هو وأَنا، نفرين مسجَّلين في كرت المؤن....أَمين، وياسين.

في المدرسة يستوقفني أَحد المعلِّمين، يُلقي عليَّ درساً في الذَّكاء، كنتُ أَعيش ذلك التَّناقض الصَّارخ بين الكتاب والواقع، كيف يمكن لولد يعيش في المخيَّم بكلِّ ما فيه من قذارات، ونساء يدلقن الماء القذر في الشَّوارع، ورجال يبولون على جدران البيوت، ويمسحون مخاطهم بأَصابعهم، ويعلِّقونه على تلك الجدران، وينخعون، ويبصقون في الشَّارع، كيف بوسعك أَن تقنعه بغسل تفاحة خوفاً من المرض قبل تناولها؟ وأَين هي التفَّاحة الَّتي سيتناولها أَصلاً؟

في ذلك العام سقط أَحد طلاَّب صفِّي في إحدى الحفر الامتصاصيَّة الَّتي تقع آخر المخيَّم، بداية الجبل، وأَخرجوه أَمام أَعيننا جثَّة هامدة مغسولة بالأَوساخ، ما جعلني غير قادر على النَّوم لأَيَّام.

سقط كنفر من بطاقة المؤن في الحفرة الامتصاصيَّة، أَخرجوه ميتاً، أُمُّه راحت تنثر التُّراب على رأسها، وهي تندب، وتبكي، غسلوه من الأَوساخ العالقة بجسده، كان عليه أَن يقابل الله نظيفاً، كما قالت النِّساء، فهو طير من طيور الجنَّة، ناسيات أَنَّه مات بعد أَن شرب بعض تلك المياه العادمة، وظلَّت في داخله....

كيف سيدخل الجنَّة ويصبح طيراً من طيورها وداخله ذلك الماء الآسن؟ كنتُ أَسأَل نفسي، لكنِّي لم أَكن قادراً على أَن أَبوح بما أُفكِّر به، كان ذلك يعني نزول العصا العمياء دون إذن فوق أَيِّ عضو من جسدي.

- لماذا لا يلتحق شقيقك بالمدرسة؟ يسأَلني أَحد المعلِّمين.
- شقيقي من؟
- أَمين، أَليس لك شقيق يُدعى أَمين؟
- بلى....
- في مثل عمرك؟
- نعم.
- لماذا لا يدرس معك؟

- **يعمل مع خالي في الكسَّارات.**
- **لكنَّه صغير على العمل.**
- **ربَّما، لا أَدري، في الحقيقة تلك رغبة أُمِّي.**

كانت توصيني دائماً بالحفاظ على السرِّ خوفاً من أَن يشي بنا جواسيس وكالة الغوث، فيقطعوا عنَّا الحصَّة الخامسة.

هل كانت حصَّة واحدة من التموين في زمن الجوع مبرِّراً كافياً لإعادة أَمين إلى قيد الحياة؟

من يدري، ربَّما عادت دير ياسين كلُّها في بطاقات المؤن، ربَّما أَهل دير ياسين الَّذين تشتَّتوا، وتوزَّعوا على المدن والمخيَّمات في الضفَّة والأُردنِّ، أَعادوا موتاهم أَيَّامذاك إلى الحياة، ربَّما فرح الموتى قليلاً بعودتهم، ثمَّ آثروا أَن يعودوا إلى الموت من جديد حين رأَوا ما يجري في المخيَّم.

كان ذلك قبل وصول الكهرباء إلى المخيَّم.

أُرافق أُمِّي إلى المؤن، النِّساء يفترشن الأَرض بانتظار السَّماح لهنَّ بالدُّخول، يدخلوهنَّ مجموعة مجموعة، ينتظرن في البرد، أَو الحرِّ لساعات طويلة، يتذكَّرن الماضي، يستعرضن فلسطين، قراهنَّ، تهجيرهنَّ، القتل، والمجازر، والتَّنكيل بالبشر، وما إن تخبرهنَّ أُمِّي أَنَّها من دير ياسين حتَّى يلتفتن جميعاً نحوها، وتبدأُ بسرد الحكاية.

في كلِّ شهر كانت تسرد لهنَّ الحكاية من جديد....حكاية دير ياسين.

كنَّ لا يتوقَّفن عن الحديث لقتل الوقت، والوقت يمضي بطيئاً، وموظَّفون ما، يخرجون بين الحين والآخر، يصرخون، يشتمون، بسبب وبلا سبب، وهنَّ لا يعلِّقن، يتقبَّلن الأَمر بهدوء، ولا يعترضنَ، أَتململ في مكاني، حصَّة من الطَّحين، وحصَّة من الأَرزِّ، والسكَّر، والسَّمن، والزَّيت، والمعلَّبات، خصوصاً السَّردين ولحم البوليبيف، والأَغطية في الشِّتاء، والملابس المستعملة، وغيرها، حسب ما يجود به ضمير العالم، كانت مبرِّراً كافياً تماماً لكلِّ ذلك الانتظار والذلِّ في زمن الجوع.

خمسة أَنفار أَصبحنا بعد عودة خالي.

امرأَة ما كانت تجلس إلى جانب أُمِّي في "المؤن" هي الَّتي أَشارت على أُمِّي أَن تحملني إلى مخيَّم الوحدات، بعد أَن أَخبرتها أُمِّي بهلوساتي أَثناء النَّوم، والأَلم الَّذي ينتابني بين الحين والآخر في رأسي، أَخبرتها أَنَّ ثمَّة بعثة طبيَّة إيطاليَّة متطوِّعة ستحضر إلى المخيَّم لمساعدة اللاَّجئين بعد يومين، وأَنَّها سمعت بذلك الأَمر من طبيب الحكمة.

-4-

لا فرق تقريباً بين المخيَّمين، سوى أَنَّ مخيَّم الوحدات أَكبر. الشَّوارع نفسها، والأَزقَّة، والمدارس، والطُّعمة، والمؤن، والحكمة، النَّاس أَنفسهم، البؤس نفسه على وجوههم.
سأَلت النَّاس فدلُّوها على الحكمة.
النساء كنَّ ينتظرن بالمئات، مع أَطفالهنَّ، وطابور آخر غير بعيد للرِّجال، والأَولاد، طال الانتظار تحت الشَّمس، شعرتُ بالتَّعب، والمرض، كنتُ كمن يتقلَّب على نار.
دخلتُ الخيمة البيضاء الواسعة أَخيراً معها.
عشرة أَطبَّاء، وطبيبتان كانوا يتحرَّكون بلا توقُّف، يركضون هنا، وهناك، يسأَلون، يعاينون، يكتبون وصفات طبيَّة، يعطون دواء من خزانات بلاستيكيَّة في زاوية الخيمة الواسعة، ثمَّة أَربعة أَسرَّة للفحص، وأَجهزة غريبة لم أَر مثلها من قبل، وطاولات خشبيَّة، ومقاعد طويلة، ومقاعد مفردة، وبشر.
اعتقدت الطَّبيبة في البداية أَنَّ أُمِّي جاءت من أَجل ساقها المقطوعة، لكنَّ أُمِّي أَخبرتها أَنَّها جاءت من أَجلي، قالت ذلك وهي تشير نحوي.
راحت تشرح لطبيب عربيٍّ ما أُعاني منه، والطَّبيب يترجم للطَّبيبة الشَّقراء ما تقوله....
أَوَّل ما لفت انتباهها شيء ما في عينيَّ فراحت تتفحَّصهما.
قاست ضغطي، ودرجة حرارتي، فحصت أُذنيَّ، ونظري، وفمي جعلتني أَفتحه ودسَّت ملعقة خشبيَّة حتَّى الحلق، فكدتُ أَستفرغ، ثمَّ عادت لتفحص نظري من جديد.
ثمَّة ما أَثار انتباهها، بدا الاهتمام واضحاً على ملامحها.
وصفت لي دواء، وقبل أَن نخرج، أُمِّي وأَنا، عادت لتأمرنا بالانتظار، استدعت طبيباً عجوزاً وراحت تحدِّثه بالإيطاليَّة، الطَّبيب العجوز كان يقطب بين حاجبيه، ويصغي

بانتباه، وما إن انتهتْ من كلامها حتَّى طلب من الطَّبيب العربيِّ أَن يطلب منِّي العودة إلى سرير الفحص.

- ماذا يقول؟ سأَلت أُمِّي بقلق.
- يريد فحصه مرَّة أُخرى....
- هل لديه شيء خطير؟
- لا....لا أَعتقد.

عشرات الأَسئلة أَلقاها على أُمِّي أَثناء الفحص، هو يسأَل، والطَّبيب الآخر يترجم، وأُمِّي تجيب، فحصني من رأسي حتَّى أَخمصي قدميَّ، وأَعاد فحص نظري ثلاث مرَّات. أَخيراً، حين انتهى، طلب منها إحضاري في اليوم التَّالي إلى مشفى الطِّلياني وسط البلد.

- هل لديه شيء خطير؟
- لا أَعتقد....
- لماذا المشفى إذن؟
- يريد أَن يتأَكَّد من شيء ما، يشكُّ في أَنَّ لديه مشكلة في دماغه.

لطمت أُمِّي على رأسها بكلتا يديها.

- دماغه؟
- دعينا نر، ولا تستبقي الأُمور.
- لكنَّنا لا نملك مالاً للمشفى الطِّلياني.
- سيكون الفحص على حساب البعثة، مجَّاناً.

ارتخت ملامحها قليلاً، ومع ذلك، في تلك اللَّيلة لم يغمض لها جفن.

دلَّلتني كما لم تدلِّلني من قبل.

في الصَّباح كان المخيَّم كلُّه يعرف أَنَّ ثمَّة خطباً في دماغي.

في المخيَّم لا حاجة لاستراق السَّمع، ينتشر الخبر كما تنتشر النَّار في الهشيم، فالبيوت جدرانها متلاصقة، وبوسع المرء أَن يسمع كلَّ ما يُقال في البيت المجاور،

بالتَّفصيل، ثمَّ ينتقل إلى الجار التَّالي، بمجرَّد أَن تخبر المرأَة زوجها بما سمعت، أَو تتبرَّع هي بنفسها، وتخبر جارتها به، إن كان الخبر مهمَّاً إلى تلك الدَّرجة الَّتي تستدعي عدم الانتظار.

كان بوسع أَيِّ امرأَة، وأَيِّ رجل، وأَيِّ شاب فضوليٍّ، أَن يعرف متى نامت الزَّوجة مع زوجها، وما همسه لها بالضَّبط، وكم آهة، وكم شهقة انطلقت من فميهما أَثناء الجماع.

كان الجماع لا يجري إلاَّ ليلاً في العتمة، بعد أَن يركن النَّاس إلى أَنَّ الأَطفال قد ناموا، لكنَّهم جميعاً كانوا يفكِّرون بالطَّريقة ذاتها، لذا، تجد المخيَّم ساهراً حتَّى ساعة متأخِّرة من اللَّيل، دون أَن تسمع سوى الهمسات، والغمزات، والآهات، خصوصاً ليلة الجمعة حيث يكون الرِّجال أَكثر إقبالاً على النِّساء.

بالكاد بوسعك أَن ترى امرأَة بلا بطن منتفخة، فالنِّساء ما إن يضعن حملهنَّ، وينتهين من فترة النِّفاس حتَّى تجد بطونهنَّ قد انتفخت من جديد، وكأَنَّهنَّ في مباراة مفتوحة للإنجاب.

للمشفى رهبة لا تضاهيها رهبة، كنتُ أَرى الشَّفقة في عينيها، والخوف، والترقُّب.

سلَّمت إحدى الرَّاهبات الورقةَ الَّتي أَعطاها لها الطَّبيب أَمسِ، راحت الرَّاهبة ترحِّب بنا، ابتسمت وهي تقودنا إلى غرفة مليئة بأَجهزة طبيَّة لا أَعرف ماذا تكون.

فوجئتُ بالأَطبَّاء، حضرتْ طبيبة الأَمس، والطَّبيب العجوز، مع طبيب آخر وتحلَّقوا حولي، ثمَّة راهبة، طبيبة على ما أَظنُّها هي الأُخرى، تولَّت التَّرجمة.

- هل تشعر بأَلم في رأسك؟ سأَلني الطَّبيب، والرَّاهبة راحت تترجم.
- نعم....
- دائماً؟
- أَحياناً.
- أَين الأَلم؟
- هنا....

- **أَين بالضَّبط؟**
- **هنا...**
- **في الخلف فقط؟**
- **نعم.**
- **كم يدوم؟**
- **أَقلَّ من دقيقة....إجابت أُمِّي.**
- **هل تشعر بنفسك دائخاً؟**
- **لا....**
- **هل يستفرغ كثيراً؟**
- **لا...أَجابت أُمِّي.**

أَجروا لي فحوصات كثيرة، وتحاليل، وصور أَشعَّة، وفحصاً للنَّظر، والسَّمع، ذهبتُ وعدتُ إلى المشفى أَربع مرَّات قبل أَن يطلقوا في نهاية المطاف قنبلتهم في وجهي، ووجه أُمِّي:

- **في دماغه ورم يمنعه من رؤية الأَشياء كما يراها النَّاس...قال الطَّبيب العجوز، ثمَّ راح يؤكِّد لها أَنَّني أَرى الأَشياء بشكل مقلوب، ولا أَراها مثلما يراها بقيَّة البشر.**
- **لا أَفهم....قالت له أُمِّي.**
- **هل يعاني من مشكلة في تحديد الجهة اليمين واليسار؟**
- **لا أَدري....أَجابت.**
- **هل يلبس فردتي حذائه بشكل مقلوب دائماً، وإِن لبسهما حسب توجيهاتك تشعرين بأَنَّه يلبسهما على مضض؟**
- **في العادة لا يلبس حذاء، يبقى حافياً معظم الوقت، في الحقيقة معظم الوقت لا يكون لديه حذاء...قالت بارتباك.**
- **هل يعاني في المدرسة من صعوبات تعلُّم الأَحرف، وقراءة الكلمات؟**

- **نعم.**
- **هذا بسبب الورم الَّذي يضغط على نقطة ما في دماغه، فيجعله يرى الأُمور بشكل مقلوب، ومزدوج أحياناً...وعيه مختلف عن وعي النَّاس، لأَنَّه يظنُّ أَنَّ ما يراه حقيقيَّاً، وما يحثُّه النَّاس عليه مجرَّد خطأ.**
- **هل هذا خطير؟**
- **خطير، ربَّما، نعم، لو تنامى الورم فسيصبح خطيراً، ربَّما يُصاب بالعمى، وإن بقي بنفس الحجم فالمشكلة ستكمن فيما يفهمه.**
- **والعمل يا دكتور؟ سأَلت بحزن، والأَلم ينضح من وجهها.**
- **العمليَّة ستكون خطيرة وقد يموت أَو يُصاب بالشَّلل إن فشلت.**

كانت الطَّبيبة قد فطنت إلى شيء غريب، غابت قليلاً وعادت بين يديها مرآة، وضعتها أَمامي، وأَجرت لي فحص النَّظر الَّذي كانوا قد أَجروه لي من قبل عشر مرَّات، عكست الدَّوائر المفتوحة عبر المرآة، وراحت تسأَلني عن الفتحات بأَيِّ اتِّجاه، ورحتُ أُجيب، رفعت نظرها نحو الطَّبيب ونظرت إليه نظرة ذات معنى، كنتُ أَرى الفتحات قبل ذلك بالمقلوب، ثمَّ صرتُ أَراها عبر المرآة بشكل صحيح....

راحت تشرح لأُمِّي كيف عليها أَن تشرح لي شكل الأَشياء، الأَرقام، الأَحرف، وضرورة عكسها من خلال مرآة كي أَستطيع رؤيتها كما يراها النَّاس.

منذ ذلك اليوم لم تغادر المرآة جيبي، كي أَستطيع التَّفاهم مع البشر، وأَفهم ما يقوله المعلِّمون في المدرسة.

صرتُ أَخدع وعيي، أُراوغ دماغي، كي أَجعله يرى الأَشياء كما يراها بقيَّة النَّاس.

أَبناء رضوان أَنشأَوا كسَّارة في عمَّان، ووظَّفوا خالي عاملاً فيها.

كان يغيب طوال أَيَّام الأُسبوع، وأَحياناً يغيب أُسبوعين أَو ثلاثة، يعمل في الكسَّارة، ويحرس فيها، ربَّما عاد ليجد نفسه هناك، ليمارس الشَّيء الَّذي أَتقنه، وأَدمنه، وأَعاد روحه إلى دير ياسين.

لم يستطع أَحد أَن يعرف ماذا جرى معه طوال تلك السَّنوات الَّتي غاب فيها وظنَّه الجميع ميتاً، وكلَّما سأَله أَحد عمَّا جرى معه برم يديه في الهواء، ورفع حاجبيه، وهزَّ رأسه إلى الأَسفل، وأَجاب:

- مممممممم.

مممممممم تلك كانت بالنِّسبة له إجابة كافية، تخبر عن كلِّ شيء، لكنَّها كانت تزيد الفضول في أُمِّي وتجعلها تنفجر فيه.

- عليك أَن تتزوَّج...

يدير ظهره، يخرج ولا يعود قبل أُسبوعين أَو ثلاثة أَسابيع.

حتَّى يوم الجمعة، يوم عطلته الَّتي كان يقضيها معنا، يبقى نائماً حتَّى ساعة متأَخِّرة، ثمَّ ينهض، ويغتسل، ويخرج مع جدِّي إلى المسجد، ويعود معه، يتناول طعام الغداء ويخرج إلى حيث لا يدري أَحد، ولا يعود قبل المساء.

يدخِّن بلا انقطاع، يبدو شارد الذِّهن، كثير القلق، كان يخاف الأَصوات العالية، ويندفع من مكانه مثل قذيفة كلَّما سمع صوت شجار اثنين في الحارة، ويبدأُ بالسُّؤال عمَّا يجري، وعن سبب الخلاف.

خالي لم يعد خالي.

- كيف انقلبت حياته بتلك الطَّريقة؟ تسأَل أُمِّي جدِّي.
- ومن منَّا لم تنقلب حياته بتلك الطَّريقة؟ يجيب جدِّي.

تدفع فتاة من بنات صديقاتها للتحرّش به، تروي لها سيرته، تقنعها بالزَّواج منه، لكنَّه كان يفرُّ منهنَّ، يفرُّ ولا يعود إلاَّ بعد أَن تكون أُمِّي قد نسيت الأَمر تماماً.

ياسمين احتلَّته، لا شكَّ احتلَّته، لم تترك فيه فراغاً لغيرها، ملأَته، ملأَت روحه وفاضت منها، ولم يعد ثمَّة متَّسع لامرأَة في روحه بعدها.

حين رأَيتُ صورتها ذات يوم ذهلت لجمالها، ياسمين أَجمل نساء فلسطين.

قد يصبح اسم الله، في لحظة وصل هو أَصل اللذَّة.

آنذاك ستشرق الرُّوح بنور إلهيِّ لا يشبه أَيَّ نور وقعت عليه العينان، وخفق به القلب، ستغرق في السَّعادة الأَبديَّة الَّتي لا تشبهها سعادة، تلك الَّتي لا يدركها إلاَّ من يتولَّى الله قلبه، ويفيض عليه بالرَّحمة.

السَّالكون في طريق النُّور، طريق الحقِّ الَّذي لا يوجد غيره طريق، هم فقط من يدركون معنى السَّعادة.

كيف بوسعك أَن تصف اللاَّملموس بالملموس؟ اللاَّشيء بالشَّيء؟ الغائب بالحاضر؟

فيها ما لاعين رأَت، ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر....

ولا خطر على قلب بشر.....

ولأَنَّ اللُّغة كلمات، ولأَنَّ الكلمات حروف، ولأَنَّ الحروف مداد، ولأَنَّ الكلام أَمواج، ولأَنَّ الحنجرة شيء، واللِّسان شيء، والكلمة شيء، والحبر شيء، والورقة شيء، وأَنا شيء، وفي داخلي ذلك النُّور، القبس الإلهيُّ العتيق العتيق، السرُّ الَّذي لا يمكن أَن يكون شيئاً، فعليَّ أَن أَتنازل عن الأَشياء كي أُدرك اللاَّأَشياء.

الأَشياء في حركتها الدَّورانيَّة تتلاشى في لحظة ما، وتتبخَّر.

والكلمات عاجزة عن أَن تقول ما فينا إلاَّ حين تكون أَسماء الله.

المسجد يقع أَوَّل المخيَّم، جهة السُّوق، قرب سكَّة الحديد، إلى جانب المقبرة، بعد العِشاء يغلقون أَبوابه، ويواصلون صعودهم سلَّم السَّماء.

صفوة الصَّفوة، العارفون بالله، يقفون أَمام المحراب وجدِّي في منتصف الحلقة، وأَمامهم صفَّان متقابلان، يبدأُ التَّسبيح بطيئاً في البداية، ثمَّ ترتفع الأَصوات بشكل رتيب، وتتسارع، فتهتزُّ الجدران، وتهتزُّ الأَجساد إلى الخلف والأَمام، وتدور الرؤوس:

هو، هو، هو، هو، هو، هو، هو.....

حي، حي، حي، حي، حي، حي.....
قيُّوم، قيُّوم، قيُّوم، قيُّوم، قيُّوم....
حق، حق، حق، حق، حق، حق....
قهَّار، قهَّار، قهَّار، قهَّار، قهَّار...
يردِّدونها آلاف المرَّات.
كلَّما حاولت الصُّعود أَجد أَبواب السَّماء مقفلة.
ثمَّة من يقف هناك، عند الباب، فوق سماء دير ياسين، ويطلب منِّي العودة من حيث أَتيت.
أَفقد قدرتي على النُّطق، إلى أَين تمضي والمجزرة فيك، والقتلى ينهضون كلَّ ليلة من جديد، يعيدون تمثيل أَدوارهم على خشبة روحك، كلُّ شيء يُعاد كلَّ ليلة مع أَذكار الصَّباح إلى ما كان عليه، طاقم جوقة الإنشاد يعودون إلى بيوتهم، وفي المساء تبدأُ مسرحيَّة الضَّحايا من جديد، اليهود يلبسون سراويل خضراء، ويمتشقون بنادقهم، والضَّحايا يرتدون ملابسهم الملطَّخة بالدِّماء....ومن وراء السِّتارة يأتي الصَّوت، صوت أُمِّي:
" وجعلنا من بين أَيديهم سدَّاً ومن خلفهم سدَّاً فأَغشيناهم فهم لا يبصرون"
يااااااء سيييييييين.
يــــــــــــــس.....
كلَّما حاولتُ الصُّعود أَجد أَبواب السَّماء مقفلة.
كلُّ بشر فيه سبعة أَنفس، يقول جدِّي، فأَذهب إلى المجزرة، ذلك يعني أَنَّ الضَّحايا ليسوا مئتين وخمسين فقط، لكلِّ ضحيَّة سبعة أَنفس، وفي بعض الأَرحام أَجنَّة لم تنضج، ثمَّة بويضات كانت ليلة الخميس، ليلة المجزرة قد لقِّحت، كانت تزغرد من الفرح، وتمنِّي نفسها بأَن تكون بعد شهور قليلة حياة.
ماتت!
ولد، بنت، بنت، ولد، ولد، بنت.....ماتوا.

تلك السَّنة كانت سنة خصب، ثلاثة وعشرون طفلاً أُنجبوا في عشرة أَشهر، أَنجبتهم نساء دير ياسين، كانت سنة تزاوج، سنة خصب، سنة النِّساء، لم يسبق للقرية أَن أَنجبت هذا العدد في مثل هذه المدَّة، كأَنَّ دير ياسين كانت تعدُّ قرابينها لإله يهودا، ويوشع، لم تكن تدرك أَن بعض الآلهة مصابة بشبق الدِّماء.

حين تفقد اللُّغة قدرتها على الإيصال تختلط الحروف بعضها ببعض، تتابع، تتوالى، كحالة دوران عجيبة لدائرة تبدو مع دورانها كأَنَّها تتلاشى في الفراغ.

كان جدِّي يحاول إيقاظي، وأَنا كنتُ غائباً في عالم آخر.

كانوا قد عقدوا تلك الحلقة من أَجلي، يريدون شفائي من ذلك الورم الَّذي اكتشفته الطَّبيبة فجأَة، فقلب كينونة أُمِّي، وجدِّي.

كانوا يأتونه من شتَّى بقاع الأَرض، المريض، والأَكتع، والأَبرص، والعاقر، والملموس بالجنِّ، والمركوب بالشَّيطان، وكان يعالجهم، فكيف يمكن أَن يقف عاجزاً أَمام مرضي؟ كان البيت الصَّغير في بعض الأَحيان يعجُّ بالبشر، يفيض بهم، النِّساء كنَّ يحضرن له أَطفالهنَّ حين يصابون بآفة البكاء المستمرِّ الملتاع، يبحث عن سبب الأَلم، وحين يكتشفه يداوي الطِّفل، لم يكن يكتفي بالتَّمائم، والقرآن، بل كان قادراً على اكتشاف الخوف، والفتق، والكسر، والتهابات اللُّوز، وكثير من الأَمراض الأُخرى، وحين يكتشف أَنَّ الأَمر أَكبر من قدراته ينصح المرأَة بحمل طفلها إلى الطَّبيب.

استدعى الأَولياء، والموالي، والعارفين بالله، وشيوخ المشايخ من كلِّ الجهات، عقدوا لي الجلسات، أَسقوني كلَّ ما قد يخطر ببال بشر، قرأوا عليَّ كلَّ الأَدعية، والآيات، والأَسماء الحسنى، لكنَّ ذلك كلَّه لم يجد نفعاً، ولم يخفِّف من تلك الآلام الَّتي كانت تنتابني بين الحين والآخر.

في الحقيقة لم أَكن أَشكو من شيء فوق طاقتي، بعض الأَلم في رأسي يأتي فجأَة ويزول، وأَحياناً يشتدُّ أَكثر فيجعلني أَصرخ، لكنَّها كانت قلقة إلى تلك الدَّرجة الَّتي تشعرني فيها بأَنَّني على شفا حفرة من الموت.

كانت مريضة بمرضي أَكثر منِّي نفسي.

تحملني مرَّتين أَو ثلاثاً إلى الحكمة دون طائل، والحكمة هي مبنى يقع في نهاية شارع المدارس، إلى جانب مبنى المؤن، والطُّعمة، وإدارة المخيَّم، فيها طبيبان وممرِّضة، وممرِّض، يسمُّونه التَّمرجيّ، والنِّساء يجلسن طابوراً أَمام المدخل، يفترشن الأَرض، كلُّ اثنتين منهنَّ أَو ثلاث يتشاركن حديثاً خاصَّاً، يتبادلن أَخبارهنَّ، وما يجري في بيوتهنَّ، ومع جيرانهنَّ، وتتدخَّل فجأَة في الحديث امرأَة أُخرى تكون مشغولة بحديث آخر مختلف، مع أُخريات، تلوي عنقها، تضيف شيئاً، أَو تنفي شيئاً، ثمَّ تعود لتكمل حديثها مع الأُخريات.

كنَّ مثل خليَّة نحل، والتمرجيُّ بين الحين والآخر يجد أَيَّ سبب ليصرخ بهنَّ، ويؤنِّبهنَّ، ويوبِّخهنَّ، ويشتمهنَّ أَحياناً، والطَّبيبان دائماً يتأَفَّفان، ويتعاملان مع النِّساء بقرف، وترفُّع، وتعال.

كان الطَّبيب يبدأُ بكتابة وصفة الدَّواء للمريض، أَو المريضة، منذ لحظة عبوره الباب إلى الدَّاخل، دون فحص، وحين احتجَّت أُمِّي، وأَخبرته بما أُعاني منه، أَخبرها أَنَّه لا يملك في الصَّيدليَّة التَّابعة للحكمة سوى هذه الأَدوية فقط، وعليها أَن تقبل بهذا الواقع أَو تذهب إلى مشفى خاصٍّ لعلاجي.

- **ابنك بحاجة إلى عمليَّة ولن يجديَ نفعاً ذهابك وإيابك عندي كلَّ يوم.**

يقول لها، لكنَّها لا تقتنع.

- **أَنا أُعالجه لك...قالت فتحيَّة.**
- **أَنتِ؟ سأَلتها أُمِّي باستخفاف.**
- **هل تريدين عنباً أَم تريدين أَن تقاتلي النَّاطور؟**
- **إن كانت كلُّ رقيا الأَرض لم تداوه، ودواء الطَّبيب، فكيف ستداوينه أَنتِ؟**

كلُّ طلاَّب مدرسة الذُّكور كانوا يعرفون فتحيَّة جيِّداً.

كنَّا نحمل حقائبنا في الصَّباح الباكر، نعبر شوارع المخيَّم وأَزقَّته جماعات، وفرادى، ذاهبين إلى المدرسة، لم يكن بيتها في طريقنا، لكنَّ بعض الطلاَّب يغيِّرون مساراتهم من أَجل المرور من أَمام نافذة بيتها المطلَّة على زقاق ضيِّق.

أَكثرهم كانوا من أُولئك الَّذين بدؤوا سنَّ المراهقة الأُولى.

النَّوافذ واطئة، بوسع العابر أَن يطلَّ من خلالها على ما يجري داخل البيوت، والأَبواب مشرعة، والأَصوات عالية، والشِّجارات العابرة تبدأُ منذ الصَّباح الباكر لأَتفه الأَسباب، تنام في الغرفة المطلَّة على الزِّقاق، والنَّافذة مشرعة، خصوصاً في الأَيَّام الدَّافئة، تترك فخذيها مكشوفين للمارَّة الفضوليِّين، خوفي كان يغلب إثارتي حين أَراها على تلك الحالة، فأُطلق ساقيَّ للرِّيح، يتوقَّف آخرون، يسترقون النَّظر إلى فخذيها من خلال النَّافذة، ويتهامسون، فجأَة تطلُّ برأسها من أَسفل النَّافذة، فتفاجئهم، بعضهم كان جريئاً إلى تلك الدَّرجة الَّتي يقف فيها متسمِّراً أَمامها، وبعضهم كان أَقلَّ جرأَة، يكتفي بما استرقه من نظر ويولِّي الأَدبار.

- هل تريدون رؤية شيء تطير له عقولكم؟

بعضهم يكتفي بذلك وينسحب خائفاً، وبعضهم يبقى.....

- نعم.

المتبقُّون هم الأَكثر وقاحة، وجرأَة، وشبقاً، وهي كانت تفهم ذلك الشَّبق، في تلك السنِّ المبكِّرة.

- عشرة قروش...تقول.

يجمعون المبلغ منهم، يدفعون مصروفهم اليوميَّ الَّذي كان قرشاً، أَو نصف قرش ويضعونه في يدها، تنزل سروالها الداخليَّ إلى الأَسفل بعد أَن ترفع فستانها، وتستعرض أَمام أَعينهم الشَّبقة فرجها، ثمَّ تعيد لبس سروالها، وتطلب منهم المغادرة.

- من الخلف....نريد أَن نرى مؤخِّرتك، يقول أَحدهم بشبق مفضوح، وهو لا يصدِّق ما رآه.
- عشرة قروش أُخرى، تجيب.

ولأَنَّهم لم يكونوا يملكون المبلغ، يؤجِّلون ذلك إلى الغد، أَو يستدعون آخرين حين يستبدُّ بهم الشَّبق ويطلبون منهم أَن يدفعوا القروش العشرة، فتكشف لهم عن

مؤخِّرتها وهي تبتسم، وحين يطالب بعضهم بلمسها، تخبرهم أَنَّ اللَّمس بنصف دينار للفرج والمؤخِّرة، وبربع دينار للثَّديين.

كانت تجمع في جيبها كلَّ صباح مصروف نصف طلاَّب الصفَّين الثَّاني إعدادي، والثَّالث إعداي، وبعضاً من مصروف طلاَّب الأَوَّل إعدادي.

كانوا يبدأُون نهارهم في حمَّامات المدرسة القذرة وهم يستمنون، يستعرضون مفاتنها في مخيَّلتهم، يستدعون الجسد البضَّ الأَبيض، ويستمنون وهم يتصايحون، ويتبارزون، من بوسعه أَن يكون فحلاً أَكثر.

- عليك أَن تُطفئ الشَّيطان فيك....تقول لي، وهي مستفردة بي في بيتها، وأَنا أَرتجف من الخوف.

سلَّمتني أُمِّي لها وخرجتْ.

فلسفتها كانت تقضي بأَنَّ الشَّيطان يسكن داخل رأسي.

- الشَّيطان عادة حين يسكن جسد الإنسان يبني بيتاً له، هذا البيت يبدو مثل ورم بالنِّسبة للبشر، لا بدَّ أَنَّه يسكن في رأسك، وأَنت تطعمه دون قصد، فيكبر فيك، حين يسكن الشَّيطان فيك ينازعك على جسدك، يحاول أَن يستولي عليه تماماً، ويطردك منه، من أَين ستأتيك السَّكينة بعد ذلك؟ واحد منكما آنذاك عليه أَن يموت، هو أَو أَنتَ.
- وهل يأكل الشَّيطان؟
- هل تأكل الدُّودة؟ الذُّبابة؟ الأَفعى؟ كلُّ شيء في هذا الكون يجوع، ويموت إن لم يأكل.
- لكنَّه من نار، فماذا تأكل النَّار؟
- الحطب، الورق، البشر، البيوت، الشَّجر، وحين تسكن في رأسك تتغذَّى على أَفكارك، تأكل كلَّ شيء وعدوُّها الماء، لا بدَّ أَن نطفئه بالماء.

قدماي ترتجفان، أَسناني يصطكُّ بعضها ببعض، وقلبي ينتفض في صدري.

أَغلقتِ السَّتائر واستدارت نحوي.

- هل أَنا مخيفة إلى هذه الدَّرجة؟

تضحك، تحاول أَن تمازحني، تقترب منِّي، تضع كفَّها على عنقي فأَشعر بحرارتها، تدنو فأَشعر بحرارة أَنفاسها تلفحني، وبصاعقة تقصم أَسفل ظهري، أَتعرَّق، أَفرك كفيَّ بعضهما ببعض، ترتجف شفتي السُّفلى رغماً عنِّي.

فستانها مزركش بورود ذات أَلوان مختلفة، على أَرضيَّة سوداء، أَملس، قصير، أَعلى من الرُّكبتين، يكشف عن عنق بضٍّ طويل أَبيض، وشقِّ النَّهدين.

كان جسدها ممتلئاً، ونهداها كانا ضخمين، وشعرها أَسود قاتم مضفور خلف ظهرها.

جلست إلى جانبي....

- هل تعرف جمال الأَمريكيَّ؟

هززتُ رأسي بالإيجاب، طنين حادٌّ كان يملأُ أُذنيَّ، فيجعلني أَشعر أَنِّي قد سقطتُ في بئر عميقة بلا قرار.

جمال الأَمريكيُّ كان يكبرني بعامين، عاد به أَبوه من أَمريكا وتركه عند جدَّته في المخيَّم لسبب لا أَدريه، أُمُّه أَمريكيَّة الجنسيَّة، وهو يشبهها أَكثر ممَّا يشبه أَباه، أَشقر الشَّعر، ناعم البشرة، أَزرق العينين، والزَّغب يملأُ ساعديه.

- جاء به أَبوه كي يعلِّمه الرُّجولة، هنا، أَتعرف ماذا فعلوا به؟

بقيتُ صامتاً، لم أُجب.

- قبل شهرين أَو ثلاثة أَشهر، عند العصر، ضبطتُ ولدين أَمام مبنى المؤن، يبتزَّانه، يضربانه، ويهدِّدانه، وهو يبكي، كنتُ أَمرُّ مصادفة من هناك، وراح يستنجد بي، أَتعرف ما الَّذي كانا يريدانه منه؟

هززتُ رأسي بالإيجاب، أَستطيع أَن أَتخيَّل الأَمر تماماً، فاجأتني بالسُّؤال.

- أَبوه حمله وعاد به إلى أَمريكا، اسمع، هل حاول أَحدهم اغتصابك؟
- لا....قلتُ مندفعاً.
- ممَّ تخاف إذن؟
- لا أَدري.
- سأُعطيك دواء أَحضره لي أَبو جمال من أَمريكا، يطفئ نار الشَّيطان في رأسك، يختلط بدمك، يسير في جسدك، ويجعلك ولداً آخر، شجاعاً، قويَّاً، سيحلحل كلَّ عقدة في جسدك، هل تريده؟

هززتُ رأسي بالإيجاب.

- انتظرني قليلاً.

غابت، خرجت إلى الحوش بعد أَن أَغلقت الباب عليَّ كي لا أَهرب، غابت قليلاً وعادت وفي يدها كأس مليء بسائل أَصفر ناولته لي.

- عليك أَن تشربه جرعة واحدة، دون توقُّف، أَغلق أَنفك بإصبعيك، واشربه دفعة واحدة.

ما إن وضعتُ الكأس على شفتي ورحتُ أَكرعه حتَّى دفعته بكفِّها إلى الأَمام كي تضمن أَنِّي لن أُعيد شيئاً منه، شعرت فجأَة بالدَّوار، وبرغبة في التقيُّؤ، طعمه مالح، مقيت، رحتُ أَسعل وهي تساعدني، تطبطب على ظهري، اقتربت أَكثر، انحنيت وأَنا أَشعر بالاختناق، تعمَّدت أَن تضع فرجها أَمام وجهي تماماً، كنتُ أَشعر به أَسفل الفستان، أَشمُّ رائحتها، رائحة المرأَة فيها، وأَرتجف، طعم السَّائل يختلط بمرارة فمي، العرق يتصبَّب من جسدي، والحرارة تخنقني، وعيناي جاحظتان مليئتان بالدُّموع، حكَّت بطنها في رأسي، انحنت أَكثر، أَصبحتْ نصف جالسة، ونصف واقفة، قبَّلت جبهتي، ثمَّ خديَّ، وما إن وضعت شفتيها على شفتيَّ حتَّى رحتُ أَنتفض، والسَّائل المنويُّ يتدفَّق في بنطالي.

لفتحيَّة بنتٌ وولد، البنتُ اسمها لطيفة، تصغرني بعامين، والولد اسمه عمر، أَصغر من شقيقته بعام واحد.

زوجها أَخبرها ذات يوم أَنَّه سيذهب كي يجرِّب حظَّه في هذا العالم، وذهب ولم يعد.

كلُّ ما أَتذكُّره عنه بعض الصُّور الغائمة، وصورته المعلَّقة على الجدار، بشاربيه اللَّذين يشبهان شارب هتلر.

ثمَّة من كان يقول إنَّه مسجون.

وثمَّة من قال إنَّه غرق في البحر.

وثمَّة من قال إنَّه يعيش في فنزويلا، تاجر قماش هناك، تزوَّج من امرأَة فنزويليَّة، واستقرَّ معها، ونسي زوجته وأَولاده.

وثمَّة من قال إنَّه لم يُسافر، تسلَّل إلى فلسطين مع الَّذين كانوا يتسلَّلون إليها، ولم يعد، قُبض عليه، أَو استُشهد.

لكنَّ الثَّابت أَنَّ أَبا عمر اختفى تماماً، ولم يستطع أَحد أَن يعثر عليه، أَو يصل إلى مكانه، حتَّى مكاتب الصَّليب الأَحمر الَّتي كانت فتحيَّة تلجأُ إليها بين الحين والآخر.

هل ترك غيابه غصَّة في روحها؟ ربَّما، لكنَّها كانت تتفنَّن في إخفاء تلك الغصَّة بالضَّحك، كانت تأخذ الحياة بشيء من الهزل، ربَّما في محاولة للتَّعايش مع ذلك الواقع المرِّ الَّذي كانت تعيشه.

في بادئ الأَمر، بعد غيابه، ولكي تعيل أَطفالها، وأُمَّها العمياء، راحت تقلي الفلافل أَمام باب بيتها، مساء، وتبيع ما تيسَّر منه، ثمَّ اكتشفت طمع الطَّامعين بها، بجسدها، وجمالها، فاستسلمت للرَّغبة الحارقة الَّتي تجتاحها، تقضي شهوة الجسد المحروم، وبالمقابل تجني المال، لم تكن عاهرة تماماً، كانت انتقائيَّة، مزاجيَّة، تعطي جسدها

لمن تريد، وتحرِّمه على من تريد، خصوصاً أَزواج صديقاتها، وجاراتها، والأَنكى، أَنَّ أَكثر المال كان يأتيها من هؤلاء الَّذين تمارس الحرمان تجاههم، كانوا يتعلَّقون بها أَكثر، ويحملون لها الهدايا سرَّاً في اللَّيل، وهي تتمنَّع، وهم يمعنون في العطايا.

قادتني من يدي إلى البيت، كنتُ منتشياً تماماً، مأخوذاً تماماً، مجنوناً تماماً، مربوطاً إليها بخيط سحريٍّ، أَودُّ لو أَضع رأسي إلى الأَبد بين نهديها وأَنام.

أَتأَمَّل جسدها، كفِّي تذوب في كفِّها، كنتُ أَتمنَّى في قرارة نفسي لو أَنَّ الطَّريق إلى البيت لا تنتهي أَبداً.

- استلمي....ساغ سليم، دفعتني نحو أُمِّي، وأُمِّي لا تصدِّق عينيها.

وجهي أَصبح فجأَة متورِّداً، الشُّحوب الَّذي كان يعلوه تلاشى فجأَة، وانحناءة الكتفين، وارتجاف الكفَّين، كلُّ ذلك فجأَة انتهى حسب ما قالت أُمِّي.

- ماذا فعلتِ له يا مجنونة؟
- أَريته بلاد الواق واق.

قالت وهي تضحك، وتأمر أُمِّي بأَن تصنع لها الشَّاي بالنَّعناع.

راحت أُمِّي تستحلفها بعد أَن نهضت لتعدَّ لها الشَّاي أَن تخبرها بالسرِّ وهي تضحك.

- لا شيء، أَسقيته دواء أَحضره لي ذات يوم أَبو جمال من أَمريكا.
- دواء؟ دواء ماذا؟
- دواء غريب، سحريٌّ، إن شربتِ منه انتهت كلُّ آلام الجسد، وتلاشت آلام الرُّوح، وعدت بكامل قوَّتك، يداوي كلَّ الأَمراض، ويشفيها، ويجعلك دائمة الضَّحك، ما الَّذي يجعلني برأيك ضاحكة طوال الوقت؟
- أَستحلفك بالله أَن تحضري لي قليلاً منه لشقيقي، ربَّما يشفيه، ربَّما يخفِّف من مرضه، لماذا لم تخبريني بأَمره من قبل؟

وعدتْها أَن تفعل، وفعلتْ، لكنَّ خالي رفض أَن يشرب رشفة واحدة منه.

سنُحارب....تقول أُمِّي لجاراتها.

- جمال عبد النَّاصر يعدُّ العدَّة للحرب.

في بيتنا راديو ضخم، أَهداه رجل ما لجدِّي، لونه بنيٌّ، وواجهته مصنوعة من شبك لونه أَصفر، له سبع كبسات، وعجلان واحد إلى اليمين يرفع ويخفض الصَّوت، والآخر إلى اليسار يتنقَّل بين الإذاعات مصدراً صريراً مزعجاً بين الحين والآخر.

عدا عن الإذاعة الأُردنيَّة كان صوت العرب طوال النَّهار يحرِّض، ويشتم، وحين يتعب المذيع ينتقل إلى صوت أُمِّ كلثوم، أَو أَسمهان، أَو فريد الأَطرش، أَو محمَّد عبد الوهَّاب، أَو سيِّد درويش...وغيرهم.

النِّساء كنَّ يتجمَّعن في بيتنا، ينصتن إلى الأَخبار، ويتحاورن في أَحوال البلاد، والعباد، ذلك الأَمر جعل استغاباتهنَّ للآخرين أَقلَّ، إذ وجدن فيما يبثُّه المذياع من مواضيع شتَّى، وأَغان، مادَّة دسمة للحديث.

كانت أُمِّي أَحياناً، حين تسمع خبراً مهمَّاً لا تقوى على الانتظار، تنادي على واحدة منهنَّ، تزفُّ لها الخبر، وتتكفَّل هي بنقله إلى جارتها الأُخرى، وهكذا، وصولاً إلى آخر المخيَّم.

كانت فتحيَّة تتصدَّر الحديث في كثير من الأَحيان، كانت أَقواهنَّ، وأَكثرهنَّ جرأَة وقوَّة.

حين أَخبرت أُمِّي بسرِّ دوائها، تبرَّعت أُمِّي بإخبار الجارات، وانتشر الخبر.

"فتحيَّة تمتلك دواء سحريَّاً أَعطاه لها أَبو جمال الأَمريكيُّ حين جاء إلى المخيَّم"

جدَّة جمال، لم تنكر الأَمر، لكنَّها لم تؤكِّده أَيضاً.

أَقسمت بعض النِّساء اللَّواتي أَسقين أَزواجهنَّ من ذلك الدَّواء أَنَّهم أَصبحوا كالثِّيران، لا يكفُّون طوال اللَّيل عن التَّحرُّش بهنَّ.

وأَقسمت امرأَة على أَنَّ طفلتها الَّتي لم تكن تنام طوال اللَّيل، ولا تتركها تنام، صارت تنام مثل ملاك وديع.
وأَقسمت امرأَة أُخرى على أَنَّ الكوابيس الَّتي كانت تراها طوال اللَّيل اختفت.
وراحت فتاة تستعرض شعرها أَمام النِّساء، وتريهنَّ كيف أَصبح ناعماً كالحرير بعد أَن وضعت شيئاً من ذلك الدَّواء في الماء، وغسلت به شعرها.
وراح رجل يتساءل غامزاً: إن كان أَبو جمال قد أَعطاها زجاجة أَو اثنتين من ذلك الدَّواء، فمن أَين لها كلُّ تلك الزُّجاجات الَّتي تبيعها لأَهل المخيَّم؟ هل مدَّ لها أُنبوباً من أَمريكا إلى مخيَّم الزَّرقاء؟
لم يبق أَحد في المخيَّم لم يجرِّب دواء فتحيَّة.
سنحارب....تقول أُمِّي لجاراتها.
حين كانت المخابرات تعتقل شخصاً، يقولون إنَّه ذهب وراء الشَّمس، وأُمِّي والجارات ذهبن أَيَّامذاك وراء الشَّمس، ما استدعى استنفاراً بين الرِّجال، أَزواجهنَّ، وآبائهنَّ، وأَبنائهنَّ، كانت لهجتهم في البداية مختلفة، كانوا يتصايحون كالدُّيوك، ويهدِّدون بأَنَّهم سيهاجمون المخفر، لكنَّهم في المخفر راحوا يتذلَّلون إلى الضَّابط، اللَّهجة تغيَّرت، تحوَّلت إلى نوع من التوسُّل، الضَّابط أَخبرهم أَنَّ المخفر لا علاقة له بالأَمر، وأَنَّ القضيَّة مرتبطة بمكتب المخابرات، ووعدهم أَن يتوسَّط لهنَّ، لكنَّهنَّ عدن قبل غروب الشَّمس، جميعاً، دون أَن تُصاب أَيٌّ منهنَّ بأَذى، أَو تُضرب، باستثناء فتحيَّة، كان الأَمر مجرَّد تهديد فقط، ووعيد، والتُّهمة كانت متابعة صوت العرب.
كانت فتحيَّة هي الدِّيك الوحيد بينهم، هي الوحيدة الَّتي واجهت المحقِّقين، ورفعت صوتها في حضرتهم....وشتمتهم، فضربوها.
جدِّي لم يعجبه الأَمر كلُّه، فأَلقى بالمذياع إلى برميل الماء.
تدقُّ الأَرض بقدمها الخشبيَّة، تتنقَّل بين العجين، وطنجرة الطَّبيخ على النَّار، وهو يصرخ، لم أَره غاضباً مثلما رأَيته في ذلك اليوم...وهي لا تجيب، كانت تحاول اللَّحاق بما فاتها من أَعمال البيت.

أَرسلتني إلى إحدى الجارات كي أَقترض بعض الأَرغفة ريثما تخبز، وحين عدتُ بالخبز، كان جدِّي قد تمالك نفسه، وهدأَ.

- إجلس....قال لي، فجلستُ.
- صلَّيتَ العصر؟
- صلَّيتُ....قلتُ كاذباً.

حملني معه إلى المسجد لأُصلِّي المغرب، وقفتُ خلفه تماماً، في الصفِّ الأَوَّل، تقدَّم أَحد الشُّيوخ حين بدأَت الصُّفوف بالاكتمال، وأَعادني إلى الصفِّ الثَّاني واحتلَّ مكاني، ثمَّ جاء آخر وأَعادني إلى الصفِّ الثَّالث، وما إن رفع جدِّي يديه إلى أُذنيه قائلاً: الله أَكبر، معلناً بدء الصَّلاة حتَّى كنتُ واقفاً في الصفِّ الأَخير، قرب صناديق الأَحذية الَّتي تفوح رائحتها فتملأُ أَنفي.

تركتُ الصَّلاة، وخرجتُ، أَطلقتُ ساقيَّ للرِّيح، عدتُ إلى البيت.

سنحارب....تقول أُمِّي لجاراتها....

كان عليَّ إذن حسب نظريَّة الطَّبيبة أَن أَشعر بالسَّاخن بارداً، والعكس، وأَن أَشمَّ الرَّوائح بالمقلوب، وأَن أَتذوَّق الأَطعمة بالمقلوب، كان يمكن أَن يكون ذلك الأَمر حقيقيَّاً، ما الَّذي يمنع تلك النَّظريَّة ما دمتُ أَرى الأَشياء بالمقلوب؟

كيف سأَثق بنفسي بعد اليوم؟ كيف سأَثق بحواسِّي ما دامت مختلفة عن حواسِّ البشر؟

بدا الأَمر عبثاً في البداية، أَن تحمل في جيبك مرآة، وترى العالم من خلالها، ومع ذلك، فقد جعلتني تلك المرآة أَكثر تصالحاً مع العالم.

المعلِّمون في المدرسة أَصبحوا متعاطفين معي حين علموا السَّبب الَّذي من أَجله كنتُ لا أَستوعب ما يقولون، وأُعانده، ما كان يجعلهم يصفونني بالغبيِّ، ويضربونني، ويكرهونني، ويعاملونني بقسوة.

صرت حديث النَّاس في المخيَّم، ومادَّة للتندُّر، وتعليق الأَطفال كلَّما رأوني أَعبر الطَّريق.

الفصل الثَّالث: السِّجن

-1-

ملأت استمارة انتسابي إلى حركة فتح...كان ذلك مباشرة بعد حرب الكرامة، حين راح الشَّباب في المخيَّمات يتدفَّقون ليحاربوا مع الثَّورة.

خلف الطَّاولة المعدنيَّة، في المكتب الَّذي استحدثوه في المخيَّم قابلتُ شابَّاً فارع القامة، حليق اللِّحية والشَّاربين، يلبس طاقيَّة، وبدلة عسكريَّة خضراء.

- اسمك؟
- ياسين محمود حسن ياسين.
- عمرك؟
- عشرون.
- عنوانك؟
- شارع مسجد الدَّراويش.
- عليك أَن تختار اسماً حركيَّاً نناديك به.
- هل ستعطونني بندقيَّة؟
- وهل تعتقد أَنَّا نلعب؟
- هل سنتعلَّم إطلاق النَّار؟
- منذ الصَّباح الباكر ستلتحق بالمعسكر على الجبل، ستحصل على بطاقة عسكريَّة، لكنِّي بحاجة إلى اسم حركيٍّ أُناديك به، وأُدوِّنه في البطاقة، بعد ذلك سنرسلك إلى الأَغوار.

كان ممتلئ الجسم، طويل القامة، وسيماً، يلبس بسطاراً عسكريَّاً، يمدُّ قدميه الطَّويلتين من تحت الطَّاولة فتصطدمان بقدميَّ.

- حسناً، هل اخترت اسماً حركيَّاً؟
- أَمين.
- سأَكتبه أَبا أَمين.

- أُكتبه كما يحلو لك.

رغبة الأَحياء في إيقاظ الموتى من موتهم لا تتوقَّف.

نعيدهم حين نسمِّي أَطفالنا بأَسمائهم، أَو حين نطلق أَسماءهم على الشَّوارع، والمعالم البارزة، أَو حتَّى نبني للمشاهير منهم المتاحف، ونحتفظ ببعض مقتنياتهم فيها.

اخترت اسم أَمين لا شعوريَّاً، وكأَنَّها رغبة دفينة في أَعماقي فارت، وخرجت فجأَة إلى السَّطح، شيء ما في أَعماقي حاول سحبه إلى الأَعلى، ليعود من فوق السُّور، يعود إلى الخلف، ويهبط في تلك البقعة الَّتي كان ينام فيها قبل أَن يلقوا به عبر السُّور، ويفتح عينيه، ويضحك.

تُرى هل بوسع البشر إعادة الزَّمن إلى الخلف؟ ولو عاد الزَّمن إلى السَّابع أَو الثَّامن من نيسان عام 1948 هل سيصبح بوسعنا آنذاك أَن نتجنَّب المجزرة؟ هل سنبذل مجهوداً مضاعفاً كي لا يموت عبد القادر الحسينيُّ؟ هل سنتكاتف أَكثر؟ هل سنفرُّ سلفاً من دير ياسين اتِّقاء لما سيحدث فيها، أَم سنحصِّنها جيِّداً، ونزيد من استعداداتنا بأَيَّة طريقة حتَّى نسقط ما سيكون في التَّاسع من نيسان قدراً؟ أَلم نكن قادرين على قراءة المستقبل آنذاك؟ أَلم يكن الحاضر يشي بحقيقة الآتي؟ هل كنَّا مخدوعين إلى هذه الدَّرجة، أَم أَنَّنا كنَّا فقط عاجزين؟ لماذا رفض جيش الإنقاذ أَن يتدخَّل؟ وماذا لو تدخَّل؟ هل كانت الأَقدار ستتغيَّر آنذاك؟ هل المجازر قدر؟ وهل يمكن الفرار من القدر؟ من تآمر العالم من شرقه حتَّى غربه من أَجل إنشاء "إسرائيل" على تلِّ عظام؟ ماذا كان بوسع عبد القادر أَن يفعل؟

لم يكن المعسكر معسكراً بالضَّبط، حجارة جمعت ورصفت لتبدو على شكل غرف صغيرة، سقوفها غطِّيت بخشب، وخوص تم جمعه من جوانب السَّيل، والهويَّة الَّتي أَعطوها لي تشبه الهويَّة، مجرَّد قطعة ورق مقوَّى، كتب الشابُّ عليها بعض المعلومات بخطِّ يده، وكانت بلا صورة.

المهنة: مقاتل...

ربَّما أَطربتني تلك المهنة، لم أَكن أَفهم تبعاتها، وما قد تقودني إليه، لم أَكن أَفهم أَنَّ مهنة المقاتل أَكثر مهنة شاقَّة في هذا الكون.

هل كنتُ أُريد الانتقام لذاتي؟ لدير ياسين؟ لأَبي وشقيقي وجدِّي وجدَّتي وعميَّ وعمَّاتي وخالاتي؟ ممَّ كنتُ أُريد الانتقام؟ من هذا الوحش القابع في أَعماقي ينهشني ليل نهار؟ ممَّ؟ من الظُّلمة؟ من الوجوه الَّتي تخرج من الجدران؟ من الجثث الَّتي لم تحترق تماماً؟ من رائحة اللَّحم المشويِّ في أَنفي؟ ممَّ؟ ممَّن دفنوا في البئر؟ ممَّن سالت أَجسادهم حتَّى أَصبحت جسداً واحداً كبيراً، كبيراً، أَكبر من أَيِّ جثَّة في العالم؟

طردوني من المعسكر مرَّتين....

بدا الأَمر طبيعيَّاً حتَّى آل بي المطاف في الأَغوار، في معسكرات الأَغوار، يومذاك، الأَخ سيف قال لي: أَنتَ لا تصلح أَن تكون مقاتلاً.

- لماذا؟
- لماذا ماذا؟ أَلم ترَ كيف كانت دقَّة تصويبك؟ أَنت بالكاد ترى الهدف، ورصاصك يطيش...أَقرب رصاصة كانت بعيدة عن الهدف مترين.
- سأَرمي عليه قنبلة بدل الرَّصاصة، وأُفجِّره، ما حاجتي للرَّصاص.
- القنابل لا تجدي عادة حين يكون الأَمر بحاجة إلى رصاص...والعكس صحيح.
- والعمل؟
- العمل أَن تجد لك مهنة أُخرى.
- أَلا يوجد حلٌّ آخر؟
- ستكون أَوَّل من يموت في المعركة.
- ما الفرق بين أَوَّل من يموت، وآخر من يموت؟
- الثَّاني يكون قد أَنجز شيئاً من المهمَّة الملقاة على عاتقه كمقاتل، بوسعي أَن أَستخدمك طبَّاخاً إن أَردتَ.
- لا أُريد أَن أُصبح طبَّاخاً، أَنا لا أُتقن إعداد الأَكل أَصلاً.

خيبة من الأَمل اجتاحتني.
لم أَكن أُريد أَن أُصرِّح له بأَنِّي أَرى الأَشياء رافضة لنفسها، لا أُفرِّق فيها بين اليمين واليسار.
لم أَكن أُريد أَن أَقول له إنَّني كنتُ أَرى الأَهداف الثَّابتة تركض، وتصرخ، وتلطم خدَّيها، وتنثر التُّراب على شعرها، وتستنجد بالسَّماء.
لم أَكن أُريد أَن أَقول له إنَّني كنتُ أَشعر بالدَّوار في رأسي كلَّما سدَّدتُ على هدف وأَطلقتُ النَّار...وإنَّني كنتُ أَسمع الهدف يبكي وهو يردِّد بصوت مسموع تماماً:
"وجعلنا من بين أَيديهم سدَّاً ومن خلفهم سدَّاً فأَغشيناهم فهم لا يبصرون"
كلَّما سدَّدتُ رصاصة طاشت في الهواء....
كلَّما سدَّدت سهماً خاب.
كنتُ أُعدُّ العدَّة للعودة إلى دير ياسين، أُعيد ترتيب المسرح في رأسي، غواية هي الحرب، غواية، حين كنتُ أَسأَل أُمِّي عن الموتى، وكيف بوسعهم العودة إلى الحياة، كانت تقول لي إنَّ الشُّهداء دائماً يعودون إلى الحياة، في كلِّ يوم يعودون ليؤثِّثوا الميدان، يعتلون خيولهم، يمتشقون أَسلحتهم ويحاربون، وأَقسمت ذات يوم على أَنَّ امرأَة من مؤتة أَقسمت لها إنَّهم يفيقون في اللَّيل على أَصوات صهيل الخيول، وصليل السُّيوف، وصرخات الجند في الحرب....صرخات الله أَكبر، وأَنَّ بوسعهم أَن يميِّزوا صرخة خالد بن الوليد عن باقي صرخات القادة.
لم أَكن صالحاً للحرب.
لم يعد بوسعي أَن أُرتِّب ميدان المعركة: الجنود اليهود بسراويلهم الخضراء، وأَسلحتهم الحديثة، والمجنَّدات اللَّواتي يكثرن عادة من الضَّحك بصخب، ومواقع الجثث، وخطَّة الهجوم الجديدة، وطريقة استعادة دير ياسين.
كنتُ أُريد أَن أَحفر على الجثث وأُخرجها من ذلك القبر الجماعيِّ الَّذي دفنت فيه، وأُخرج ما في البئر من شهداء، أُعيد تعريف الأَشلاء، وأَبني متحف دير ياسين،

متحف عظام دير ياسين، متحف الموتى، الشُّهداء، الضَّحايا، لأَقول لجيش الإنقاذ إنَّه أَكثر ما كان بحاجة إلى الإنقاذ، وللعالم أَقول كم هي بشعة هذه الحياة ومخيفة.

كلُّ شيء الآن ذهب أَدراج الرِّياح، وما عاد بوسعي أَن أَكون مقاتلاً.

كلُّ شيء في هذا الكون مبنيٌّ على التَّوازن، الميزان كفَّتان، والعدل كفَّتان متساويتان، إن كان ثمَّة ذكرى للمجزرة فعليَّ أَن أَعمل جاهداً لتكون هناك كفَّة أُخرى، كفَّة ذكرى محو المجزرة.

لم أَكن صالحاً للحرب.

عرَّجتُ على قبر أُمِّي أَثناء عودتي من الكرامة وبكيت، شكوت لها حزني، وكيف أَنَّ مهنتي فجأَة تغيَّرت....

مضى على موتها عام طويل لم أَنقطع أُسبوعاً واحداً خلاله عن زيارتها، كنتُ أَبقى إلى جانب القبر كلَّ يوم خميس من العصر حتَّى ما قبل الغروب...أَقرأُ سورة يس.

" وجعلنا من بين أَيديهم سدَّاً ومن خلفهم سدَّاً فأَغشيناهم فهم لا يبصرون"

حين كانت حرب حزيران منذ عام على وشك الاندلاع تذكَّرتِ المذياع، وراحت تلوم جدِّي لأَنَّه أَلقى به إلى برميل الماء.

اشترت مذياعاً من نقودها الَّتي كان خالي يسلِّمها لها كلَّما حضر، كان لا بدَّ لها من شراء مذياع حين أَغلق جمال عبد النَّاصر مضائق تيران، وبدت الحرب على الأَبواب.

النَّاس راحوا يلمُّون حاجيَّاتهم، الضروريَّ فقط، يقول الأَزواج لزوجاتهم، وأَولادهم، فهم على كلِّ حال، لم يكونوا يمتلكون الكثير من الأَشياء الَّتي لها قيمة تستحقُّ أَن تُحمل إلى فلسطين.

أُمِّي صرَّت ما تعتقد بأَهميَّته في البطَّانيَّات، ربطتها جيِّداً خوفاً من أَن تتساقط الأَشياء منها في الطَّريق إلى فلسطين، نفضت الغُبار عن حقيبتين كبيرتين، وملأَتهما بالأَغراض، ثمَّ تعاقدت مع سائق شاحنة فورد حمراء، كان طمَّاعاً، طلب ضعف الأُجرة، وبعد فصال طويل، اتَّفقت معه على أَن تدفع له سبعة دنانير، أَخبرته أَنَّها كلُّ ما تملك

فوافق على مضض، على أَلاَّ تعترض إن حمل معها عائلتين أُخريين، أَو ثلاثاً، وهي لم تمانع.

كانت لا تترك المذياع من يدها.

يوم أُعلنت الهزيمة ماتت.

عدتُ إلى البيت، وجدتها منكمشة على نفسها، تقبض بأَصابعها على صرَّة من صرر الملابس، وقد جفَّت يداها عليها، وجفَّ جسدها، حتَّى بات مثل شجرة يابسة لا روح فيها، والمذياع كان يبثُّ موسيقاً عسكريَّة حزينة، موسيقا الهزيمة.

في الصَّباح، قبل أَن أَخرج، ربَّما كانت تستشعر موتها، ربَّما كانت تحسُّ به، أَمسكتْ بكفِّي، قبضت عليها بقوَّة لم أَعهدها فيها من قبل، حدَّقت في عينيَّ.

- إن متُّ قبل أَن تنتهي الحرب ونعود، إيَّاك أَن تدفنني في المخيَّم، إحمل جثَّتي مع الأَمتعة، إدفع دينارين أَو ثلاثة دنانير أُخرى لسائق الشَّاحنة، وادفنِّي في فلسطين.

ماتت، ودفنتها في مقبرة المخيَّم.

بقيت السَّاق الخشبيَّة، كان ذلك كلُّ ما تبقَّى منها، السَّاق الخشبيَّة فقط، قلتُ لنفسي إنَّني سأَحتفظ بها، لن أُفرِّط بها، وسأَدفنها ذات يوم في فلسطين، إن قدَّر لي ذلك، ثمَّ عدتُ لأُغيِّر رأيي، ما حاجة ساق خشبيَّة لأَن تدفن في فلسطين؟ ما حاجة جسد ميت أَن يُدفن هناك؟ ما الفرق أَن يُدفن هنا أَو هناك؟ ما الفرق؟ هي بالذَّات بقي جزء منها هناك، ساقها الَّتي علقت بين صخرتين وانفصلت عن جسدها، ربَّما أَكلتها الذِّئاب أَو الكلاب، ربَّما نهشها طير جارح، لكنَّ العظام لا شكَّ بقيت تذرع المسافة ما بين دير ياسين، وعين كارم، تقيسها، ولا شكَّ أَنَّها كانت في كلِّ مرَّة تخرج بنتائج مختلفة كما يهيَّأُ لي.

فتحيَّة ترسل لنا الطَّعام كلَّ يوم....وجدِّي يلحُّ عليَّ بالزَّواج.

- نريد امرأَة تخدم البيت، وتخدمنا.
- تزوَّج أَنتَ....

كنتُ أُمازحه، كانت روحه مرحة، وكان دائم الابتسام، وذلك الأَمر بالذَّات لم أَرثه عنه.
خالي صار أَقلَّ حضوراً منذ النَّكسة، وموت أُمِّي.
لا أَحد كان يعرف ماذا يفعل، كيف يفكِّر، ومن هم أَصدقاؤه، وما هي وظيفته في الحياة بالضَّبط.
المخيَّم يكبر، ينمو، يتطوَّر، يتوسَّع، الأَطفال كبروا، وأَنا أَيضاً كبرتُ.
انقضت كارثة أَيلول الأَسود، كانت مهنة المقاتل أَيَّامذاك أَقسى مهنة عرفها البشر.
مضت الثَّورة بعيداً، بعيداً، ولم أَعد أَرى الكاكي في شوارع المخيَّم، ولا المعسكرات على الجبل.
سقطت الزَّرقاء مبكِّراً، كانت مدينة الجنود.
حين فتحت "إسرائيل" أَبواب الزِّيارة للمهجَّرين، وسمحت للنَّاس المقيمين في فلسطين باستصدار تصاريح زيارة خاصَّة لأَقاربهم، تُسمَّى "تصاريح احتلال" أَرسلت جدَّتي الَّتي كانت قد بقيت في اللدِّ لجدِّي تصريحاً لزيارتها، مع رسالة تنضح بالشَّوق والحنين.
عاد فجأَة مثل طفل صغير...كان يدور حول نفسه لا يصدِّق أَنَّه عائد إلى فلسطين، وفي ليلة سفره لم ينم، ظلَّ ساهراً حتَّى الصَّباح.
انفتحت أَبواب الذِّكريات في رأسه، راح يستعرض دير ياسين، والقدس، وأَصدقاءه، والطُّرق، والبيوت، والمساجد، نسي المجزرة تماماً، فذكَّرته بها، بالبئر، والقبر الجماعيِّ في المحجر...
وعدني أَن يحاول أَن يجعلها تستصدر لي تصريحاً في أَقرب وقت.

الشُّهود الَّذين نقلوا أَخباره فيما بعد أَكَّدوا على أَنَّ قدمه اليمنى توقَّفت بعد خطوات من عبوره الجسر، أَثناء صعوده الحافلة، وفي أَريحا راح يشكو لهم من أَلم في يده اليسرى، ويخبرهم أَنَّ فلسطين لا تعادلها بلاد، وأَنَّها وطن أَعطاه الله ملامح لا تشبه أَيَّة ملامح وطن في الكون، وأَنَّها أَرض الله دون أَيِّ أَرض، ثمَّ تعالى صوته بالتَّسبيح، ثمَّ التوى لسانه وما عاد أَحد يفهم ما يقول، ثمَّ حين توقَّفت الحافلة أَمام باب العمود مات.

ثمَّة مفارقة غريبة لم يفهمها أَحد، ولن يكون بوسع أَحد تفسيرها ذات يوم أَبداً.

في اللَّحظة الَّتي كان جدِّي يموت فيها، كانت شقيقته التوأَم الواقفة بباب العمود تسقط على الأَرض، وتموت....

هو داخل الحافلة، وهي خارجها.

راح أَولادها يتصايحون، ويصرخون، تحلَّق المارَّة حولها، تداخل الخبر بين النَّاس المتجمهرين، ثمَّة من لم يكن يفهم ما يجري، بعضهم يقول إنَّ رجلاً في الحافلة مات، وآخرون يردُّون قائلين إنَّ الميت امرأَة، لا رجل، وإنَّها ممدَّدة على الرَّصيف المحاذي لساحة باب العمود.

حين أَدركوا الحقيقة بُهتوا....بدا الأَمر معجزة ما، الرَّجل العجوز وشقيقته يموتان في اللَّحظة ذاتها، وهو قادم لزيارتها بعد غياب خمس وعشرين سنة، وهي واقفة بانتظاره. ثمَّة من أَولادها من حملها وراح يركض بها إلى مشفى المقاصد في جبل الزَّيتون، وثمَّة من بقي ليستقبل جثَّة الجدِّ، لكنَّ رجال الشُّرطة منعوهم، أَخبروهم أَنَّ الرَّجل زائر ولا يحقُّ لهم التصرُّف بجثَّته، صادروا الجثَّة وحملوها إلى المشفى ذاته، بعد توسُّل ابنها الطَّويل.

كان على الأَولاد أَن يبدأُوا باتِّخاذ الإجراءات القانونيَّة للدَّفن، لكنَّ السُّلطة المعنيَّة أَخبرتهم أَنَّ دفن الجدِّ ممنوع في فلسطين، لا يمكن استصدار تصريح دفن له، فهو ليس مواطناً، وعليهم أَن يعيدوا الجثَّة، ويسلِّموها للسُّلطات في الأُردنِّ، فهي المسؤولة عنها....

- **كيف نعيد الجثَّة يا سيِّدي؟ ستتعفَّن في الطَّريق، أَنتَ تعرف أَنَّ إكرام الميت دفنه.. قال ابنها للموظَّف الَّذي كان مكلَّفاً بمتابعة الأَمر.**
- **تلك هي الأَوامر.**
- **وهل ستقوِّض جثَّة رجل عجوز دولة "إسرائيل"؟**
- **تلك هي الأَوامر.**
- **ستتعفَّن قبل أَن تصل.**
- **ستُعاد بالبرَّاد.**
- **من سيستلمها؟ وكيف؟**
- **هناك إجراءات خاصَّة بمثل هذه الحالات.**

في نهاية المطاف، تنازل الأَولاد، استسلموا للقانون، وتوسَّلوا للموظَّف المكلَّف بإعادة الجثَّة إلى المصدر الَّذي جاءت منه، أَن يسمح بلقاء سريع للجثَّتين إن أَمكن، فسمح لهم بخمس دقائق فقط، أَخرجوا جثَّتيهما من الثَّلاجة وسجُّوهما في الممرِّ، متلاصقين، وضعوا يده في يدها، وراحوا ينتحبون حولهما.

- **انتهت الزِّيارة....قال الموظَّف..**

حملوا جثَّة الجدَّة وخرجوا، وبقيت جثَّة جدِّي تلوِّح بيدها مودِّعة الجدَّة المحظوظة الَّتي ستُدفن في فلسطين، لكنَّ أَحداً لم يكن بوسعه أَن يرى كلَّ ذلك، أَو يسمع بكاءها وبكاءه وهي محمولة على الأَكتاف، وهو يلوِّح لها بيده في الهواء ويودِّعها.

رسائلي الَّتي أُرسلها بالبريد عادة ما تعود مختومة بختم يقول: تعود إلى المرسِل. ولإنَّ موظَّف البريد يعرفني، يرسل في طلبي، ويؤنِّبني، لم يكن موظَّفو البريد يفهمون ما أَكتبه على الظَّرف، لذا كانوا يتتبَّعون ختم مكتب البريد الَّذي أُرسلت منه الرِّسالة، مكتب بريد المخيَّم، ويعيدونها إليه.

- لماذا تهدر مالك ووقتك ووقتنا؟ إمَّا أَن تكتب العنوان كما يكتبه البشر، لكي تصل الرِّسالة إلى الشَّخص الَّذي أَرسلتها له، أَو لا ترسلها.
- هكذا أُتقن الكتابة.
- دع أَحداً يكتبه لك.
- لا بأس....كنتُ أُجيبه في البداية...وفي نهاية المطاف اعترفتُ له بأَنَّ المُرسَل إليه أَصلاً مجهول.
- هل أَنت مجنون؟
- لا....هي المجنونة.
- من هي؟
- فتحيَّة.
- فتحيَّة منْ؟
- جارتنا...
- لماذا ترسل الرَّسائل إذن؟
- تبحث عن زوجها المفقود....

الجسد الفاتن الَّذي كان أَولاد المدرسة يتغنَّون به لم يعد كذلك، الثديان الجميلان تضخَّما أَكثر، وتهدَّلا فوق كرش يتدلَّى حتَّى أَوَّل الفخذين، والمؤخِّرة تهدَّلت أَيضاً،

والشَّعر شاب، والملامح تشتَّتت، والنَّظرات زاغت، ربَّما استُهلكت فتحيَّة إلى تلك الدَّرجة الَّتي أَصبح جسدها يثير التقزُّز.

حين انفضَّ عنها البشر أَصبحت تشعر بالوحدة.

ابنها عمر ترك المخيَّم وهجَّ مع الفدائيِّين الَّذين غادروا إلى لبنان، عام 1971، بعد أَيلول الأَسود...زارته مرَّتين، وتوسَّلت إليه أَن يعود لكنَّه رفض، كان يرسل لها بين الفينة والفينة رسائل مع العابرين، أَقرؤها لها أَنا، على طريقتي، ثمَّ أَرسلوا لها أَخيراً رسالة تعزِّيها به، وتشدُّ على يدها، وملصقاً عليه صورته، تنعيه فيه حركة فتح شهيداً للأُمَّة العربيَّة استُشهد في معارك الدِّفاع عن عروبة الجنوب.

لطمت خدَّيها وانهارت...بكت، صرخت، اجتمع المخيَّم على صراخها، حملت الملصق ورفعته ليرى صورته الجميع، راح النَّاس يصبِّرونها، ويخبرونها أَنَّ عمر شهيد، وأَنَّه في الجنَّة، ومنهم من تلا عليها آيات من القرآن....

"وبشِّر الصَّابرين....." سورة البقرة-آية 155.

" ولا تحسبنَّ الَّذين قُتلوا في سبيل الله أَمواتاً بل أَحياء عند ربِّهم يرزقون" سورة آل عمران-آية 169.

عمر راح، ذهب، استُشهد، مات، وفتحيَّة جُنَّت من بعده.

ذهبت إلى لبنان وعادت بنصف عقل فقط...تركت النِّصف الآخر هناك، ربَّما فوق قبره، في مقبرة الشُّهداء، وحين عادت ملأَت جدران بيتها بملصق نعيه.

بذلت لطيفة ابنتها الَّتي كانت قد تزوَّجت مبكِّراً من ابن تاجر في السُّوق جهداً استثنائيَّاً في رعايتها أَيَّامذاك، كانت تأتي مع أَولادها يوميَّاً، وكنتُ أَلتقي بها بين الحين والآخر، استأذن بالخروج لكنَّ فتحيَّة تصرُّ على بقائي، ربَّما كانت ترى فيَّ عمر الَّذي مات، ربَّما كنتُ آخر الرِّجال في حياتها البائسة.

تطلب منِّي أَن أَكتب رسالة لأَبي عمر.

فجأَة تذكَّرته، أَو ربَّما فجأَة ما عادت قادرة على كبح جماح شوقها إليه، وغضبها منه، فانفلتت، ربَّما كان العهر الَّذي مارسته فتحيَّة من قبل مجرَّد انتقام منه، من غيابه،

من الفراغ الَّذي تركه في حياتها، من ترْكِهِ لها وجهاً لوجه مع حياة قاسية، بطفلين، وأُمٍّ عمياء، وعالم لا يرحم، يشبه عالم الذِّئاب.

حامد عبد الفتَّاح محمود عبد الجبَّار المكنَّى بأَبي عمر، زوج فتحيَّة، مفقود منذ عشرين عاماً، خرج ولم يعد، ربَّما يكون قد مات، ربَّما، لكنَّه قد يكون على قيد الحياة أَيضاً.

- عليه أَن يفهم، ويعي، ويعرف أَنَّ ابنه استُشهد.
- ماذا لو كان في السِّجن مثلاً؟ أَسأَلها.
- لو كان في السِّجن لعرف الصَّليب الأَحمر بأَمره.
- أَين يمكن أَن يكون برأيك؟
- أُريدك أَن تكتب رسالة لكلِّ دولة في هذا العالم، هل تحفظ أَسماء بلاد العالم؟ أَنا أَعرف بريطانيا، وأَمريكا، وفرنسا، والسُّوفييت، أَعرف دولة تدعى ليبيريا، وأعرف فنلندة، وكندا، وآيسلند، والنرويج، وماذا أَيضاً؟ تسأَل نفسها وهي تحكُّ أَطراف شعرها نصف الأَبيض...بولندا، وجنوب أَفريقيا، والفلبين...أَتعرف كيف عرفت كلَّ هذه الدَّول، وحفظت أَسماءها؟ كنتُ كثيراً ما أَسمع الأَسماء في المذياع، يوم قرَّروا تقسيم فلسطين، كنَّا نسمع ذلك في مذياع في بيت المختار، وكنتُ أَسمع كثيراً المذيع يردِّد أَسماء تلك الدُّول، وغيرها، نسيت الآن معظمها، أَنا في الحقيقة درستُ حتَّى الصفَّ الثَّاني فقط، ولم أَزر في حياتي دولة أُخرى، ولم أَركب طائرة، ولا قطاراً، ولا سفينة، من يازور إلى مخيَّم الزَّرقاء، كانوا يقولون إنَّ هذه الدُّول صوتت لصالح قرار تقسيم فلسطين، وإِعطاء جزء منها لليهود...الآن أَخذوا كلَّ فلسطين، سرقوها، ذبحونا وشرَّدوا من بقي منَّا على قيد الحياة، وسرقوها.
- تريدينني أَن أَكتب رسائل وأُرسلها إلى هذه الدُّول؟
- إلى كلِّ الدُّول والحكومات....والأُمم المتَّحدة أَيضاً.
- وهل تعتقدين أَنَّ اختفاء أَبي عمر يهمُّهم؟

- **لم لا؟....ربَّما نجد منهم من يساعدنا في العثور عليه.**
- **لكنَّنا نريد عنواناً...**
- **وهل عناوين الحكومات مجهول؟...اكتب اسم البلد، وعاصمتها، ثمَّ اكتب على الظَّرف تسلَّم إلى حكومة كذا...**
- **ماذا سأَكتب فيها؟**
- **إسأَلهم إن كان زوجي المدعو حامد عبد الفتَّاح محمود عبد الجبَّار، أَبو عمر موجود لديهم أَم لا.**

جنَّت فتحيَّة، وأَنا تبنِّيتُ جنونها....لم أَكن جادَّاً في الأَمر ومع ذلك امتثلتُ لرغبتها، كنتُ أَكتب الرِّسالة تلو الرِّسالة....وأُرسلها بالبريد، لكنَّها دائماً تعود إلى المرسل، وكنتُ أَخاف من إخبارها بعودة الرَّسائل كي لا تصاب بالإحباط أَكثر.

خصائص الصُّورة المتكوَّنة في المرآة المستوية: خياليَّة، معتدلة، معكوسة بالنِّسبة لوضع الجسم، مساوية للجسم في الحجم، ويُعدها عن المرآة يساوي بُعد الجسم، والمستقيم الواصل بينها وبين الأَصل عموديٌّ على المرآة.

كنتُ أَحفظ تلك الخصائص عن ظهر قلب، منذ كنتُ في المدرسة، بسبب علاقتي الاستثنائيَّة بالمرآة.

كيف يمكن للصُّورة أَن تتبادل المكان مع الأَصل؟ كيف كان يمكن لها أَن تصبح واقعاً ما في بطاقة المؤن، نفراً يُصرف له الطَّحين، والأَرزُّ، والسكَّر، والسَّمن؟

المرآة إذن تحوِّل الواقعيَّ إلى خياليٍّ بالنِّسبة للأَشخاص الطَّبيعيِّين، وتحوِّل الخياليَّ إلى واقعيٍّ بالنِّسبة لي.....كنتُ أُفكِّر.

اقتحم حياتي فجأَة شخص كنتُ أَسمع باسمه من قبل، وأَراه بين الحين والآخر جالساً على كرسيٍّ قشٍّ صغير أَمام باب بيته في المخيَّم، تحت عين الشَّمس، يشرب الشَّاي، أَرفع يدي بالسَّلام، فيردُّ عليَّ مرحِّباً، يدعوني لشرب الشَّاي فأَعتذر.

كنتُ من قبل قد سمعتُ باسم نهرو، لكنَّني لم أَعرف أَنَّ هذا الشَّخص بالذَّات هو نهرو.

استقبلته على مضض، لم أَكن أُحبِّذ إقامة العلاقات مع النَّاس، منذ موت جدِّي قلَّت زيارات خالي أَكثر، وأَصبحتُ أَكثر وحدة، كانت فتحيَّة فقط وابنتها وأَولادها هم من أَختلط بهم من الجيران، لكنَّ هذا طبعاً لم يكن يعني أَنَّ الجارات لم يكنَّ يرسلن لي كلَّ يوم طعامي...ويعض أَرغفة الخبز.

رحَّبتُ به، ودعوته للدُّخول فدخل.

- أَنا نهرو...قال، ففوجئتُ...
- أَنتَ نهرو؟

- نعم.
- كنتُ أَظنُّ نـهرو شخصاً آخر غيرك، أَطول، وأَكثر امتلاء.

ضحك...وهو يدخل.

- حسبتك تعرفني.
- أَعرفك، لكنِّي لا أَعرف أَنَّك نـهرو.
- هل أَنا معروف إلى هذه الدَّرجة؟
- نعم....سمعتُ باسمك كثيراً.
- ماذا سمعتَ عنِّي؟
- أَنَّك لا تخرج من السِّجن إلاَّ لتعود إليه....وأَنَّك ملحد...لا تعترف بوجود الله.

عاد يضحك...

- لا تصدِّق كلَّ ما تسمعه.

صنعتُ شاياً، وجلستُ أُدخِّن.

- ماذا تعمل؟
- لا أَعمل.
- لماذا لا تعمل؟
- لا أَدري.
- من أَين تأكل وتشرب؟
- خالي حين يزورني يترك لي بعض النُّقود، أُكيِّف حياتي بها.
- لماذا لا تعمل معه؟
- لم يعرض عليَّ الأَمر.
- هل تريد أَن تعمل؟
- لم لا...إن كان عملاً مناسباً.
- مناسب، نعم، أَعتقد ذلك.

- أَين؟
- في مطبعة.
- هل جئت تعرض عليَّ عملاً؟
- لا...في الحقيقة جئت من أَجل أَمر آخر.
- ما هو؟
- طريقة رؤيتك للأَشياء، صحيح أَنَّك ترى العالم مقلوباً؟
- نعم...
- تراني الآن مقلوباً؟
- ليس تماماً... هل تمسك كوب الشَّاي بيدك اليمين؟
- بل باليسار...
- أَنا أَراك تشرب باليمين، وأَرى الكأس يتحرَّك، يتذبذب وكأَنَّه يريد أَن يقفز من مكانه.
- أَليست هذه حالة غريبة؟
- ربَّما...غريبة، نعم، هل سمعتَ بأَحد مريض بهذا المرض؟
- لا....لذلك جئتك.
- هل أَنتَ طبيب؟
- نصف طبيب.
- ماذا يعني نصف طبيب؟
- يعني أَنَّني لم أُنه كليَّة الطبِّ بعد.
- تدرس؟
- عدتُ مؤخَّراً للدِّراسة بعد خروجي من السِّجن.
- لماذا سجنوك؟
- لأَنَّني شيوعيٌّ...تهمتي الانتماء للحزب الشِّيوعيِّ الهدَّام، قال مبتسماً بتهكُّم.

- أَين تدرس؟
- في الجامعة الأُردنيَّة.
- ماذا تريدُ أَن تعرف عنِّي؟
- ماذا قال لك الأَطبَّاء؟
- قالوا لي إنَّ هناك ورماً في الدِّماغ....وإنَّ استئصاله صعب.
- أَين في الدِّماغ؟
- وهل تعتقد أَنِّي طبيب مثلك أَعرف أَنَّ الدِّماغ له أَقسام وفروع؟ الوجع هنا، في الخلف...قلت وأَنا أُشير بسبَّابتي إلى مؤخِّرة رأسي.

ضحك.

نهرو شاب يصغرني بعامين، متوسِّط القامة، شعره أَسود، طويل، وعيناه عسليَّتان تشعَّان ذكاء، وقوَّة، ووجهه مستطيل، رقيق، لبق، يعرف كيف يدير الحديث، ويكسب ودَّ النَّاس....شعرتُ به يدخل حياتي من أَوسع أَبوابها منذ لقائنا الأَوَّل.

مدَّ كتاباً كان يحمله بين يديه نحوي...

- ما هذا؟ سأَلته.
- أَصل الأَنواع....تشارلز داروين...أَجاب.
- عمَّ يتحدَّث؟
- الصِّراع من أَجل الوجود، والانتخاب الطَّبيعيِّ، والتَّنوُّع..أَرجو أَلاَّ يكون سؤالي ثقيلاً عليك...قال وهو يمرِّر سبَّابته على العنوان...وأَضاف:
- ماذا ترى هنا؟
- كلمتان...
- هل بوسعك قراءتهما؟
- حسب ما أَراهما أَم تراهما أَنتَ؟
- حسب ما تراهما أَنتَ.
- عاونألا لصأَ.

- **هكذا تراها؟**
- **نعم..**
- **وهذه؟**
- **نيوراد زلراشت.**
- **هكذا تراها؟**
- **نعم.**
- **وكيف بوسعك أَن تفهم أَنَّك تراها بالمقلوب؟**
- **تعلَّمت في المدرسة أَن أَقرأَ كما يريدونني أَن أَقرأَ، درَّبتّ نفسي أَن أَقرأَ بالمقلوب.**
- **هل الأَمر صعب؟**
- **لم يعد صعباً مع هذه، قلت وأَنا أُخرج من جيب جكيتي الدَّاخليِّ المرآة الصَّغيرة الملازمة لي.**
- **ترى الأَشياء بمرآة؟**
- **نعم....**
- **يهيَّأُ لي أَنَّنا لو كنَّا في دولة محترمة لوجدت العلماء يتدافعون من أَجل إجراء دراسات على ظاهرتك الغريبة، أَتعرف؟ منذ فترة وأَنا أُحاول أَن أَتقرَّب منك، لأَتعرَّف عليك.**
- **من أَجل مرضي هذا؟**
- **لا...ليس ذلك فقط، كنتُ أُريد أَن أَفهم طريقة تفكيرك، وكيف ترى هذا العالم.**

شيء ما، غريب، عاطفة لا أَستطيع تفسيرها تربطني بسورة يس.
كلَّما أَصغيت إلى شيخ في المذياع يقرؤها سقطت كلُّ الأَصوات حولي عداه، وشعرت بقشعريرة تجتاح جسدي.
"يس(1) والقرآن الحكيم(2) إنَّك لمن المرسلين(3) على صراطٍ مستقيم(4) تنزيلَ العزيز الرَّحيم(5) لتنذر قوماً ما أُنذر آباؤهم فهم غافلون(6) لقد حقَّ القول على أَكثرهم فهم لا يؤمنون(7) إنَّا جعلنا في أَعناقهم أَغلالاً فهي إلى الأَذقان فهم مقمحون(8) وجعلنا من بين أَيديهم سدَّاً ومن خلفهم سدَّاً فأَغشيناهم فهم لا يبصرون(9)........." قرآن كريم-سورة يس الآية من 1-9.
يس...يااااااااء سيييييييين.
يس...مجرَّد تعويذة تتدلَّى من عنق دير ياسين....لكنَّها لم تستطع حمايتها من المجزرة، ولا وقف نزيف الدِّماء، وكلَّما كانت أُمِّي تقرأُ شيئاً منها لي في اللَّيل قبل أَن أَنام، في العتمة، قبل وصول الكهرباء إلى المخيَّم، كانت كمن يحفر بمسمار آياتها على الذَّاكرة.
"وجعلنا من بين أَيديهم سدَّاً ومن خلفهم سدَّاً فأَغشيناهم فهم لا يبصرون"
ببطء بدأتُ أَفهم تلك الكوارث الَّتي تعبث بدماغي، حين راح نهرو يشرح لي ما توصَّل إليه بعد بحث طويل:
العين هي فرع من فروع الدِّماغ.
الشَّبكيَّة تستجيب لأَطوالٍ موجيَّة ضوئيَّة مختلفة، لكنَّ الإبصار هو عينان، ودماغ، ماذا تفعل العين إن اقتلعتها من مكانها؟ ترى؟ لا يمكن أَن ترى طبعاً.

أَدمغتنا هي الَّتي تقوم بالفعل، تحلِّل المعلومات المتراكمة، تقرِّر ما يجب التَّركيز عليه، وما عليها تجاهله، وفيها، داخل تلك الأَدمغة، ذاكرة تقيس الصُّورة بالرُّجوع إليها، الدِّماغ هو ما يبني العالم من حولنا....يقول.

تتمركز الصُّورة على الشَّبكيَّة بشكل مقلوب، وتتولَّد طاقة كهربائيَّة، لغة يستطيع الدِّماغ ترجمتها إلى رموز مفهومة، بعد أَن تنتقل إليه عن طريق أَلياف العصب البصريِّ، إلى الجزء الخلفيِّ من المخِّ، حيث توجد منطقة خاصَّة بالبصر.

هناك يكمن الورم، ويمنع الدِّماغ من إعادة تشكيل الصُّورة بشكل صحيح.

- هل يمكن أَن يكون ورماً خبيثاً؟
- لو كان كذلك لما كنتَ الآن على قيد الحياة.
- هل يوجد له علاج؟
- الجراحة فقط، حسب ما قاله أُستاذي في الجامعة، وهي جراحة خطيرة جدَّاً لأَنَّها في منطقة حسَّاسة، ربَّما يتطوَّر الطبُّ أَكثر ويصبح بوسع الجرَّاحين إجراؤها، من يدري؟

لم أَفهم خطورة علاقتي بنهرو إلاَّ حين طرق باب البيت في اللَّيل أَربعة رجال من الأَمن، اعتقلوني، واقتادوني إلى زنازين المخابرات العامَّة في الزَّرقاء.

احتجزوني في غرفة النَّظارة ساعات، ثمَّ اقتادوني إلى التَّحقيق.

المحقِّق العابس استقبلني بصفعة شعرت بخدِّي على أَثرها يتخدَّر، تحسَّسته، ولم أَفهم سرَّ المقابلة بتلك الطَّريقة.

- لماذا تضربني؟
- اخرس، ولا تتكلَّم إلاَّ حين أَأذن لك.

خرستُ ولم أَتكلَّم.

- ما علاقتك بنهرو؟
- صديقي...
- شيوعيٌّ؟ نظَّمك في الحزب؟

- وما المشكلة في أَن أَكون شيوعيَّاً؟
- ها هه، تعترف إذن؟
- أَعترف طبعاً، ذلك شرف لي....ما دام نهرو شيوعيَّاً فأَنا شيوعيٌّ مثله.

كان نهرو قد سيطر على حواسِّي كلِّها.

- سأَجعلك تتمنَّى أَن تعود إلى بطن أُمِّك.
- ومن منَّا لا يتمنَّى أَن يعود إلى بطن أُمِّه؟

بدا أَنَّ منطقي في الحديث استفزَّه، كنتُ أَتعمَّد استفزازه، حاولتُ أَن أُقلِّد نهرو، أَن أَتصرَّف بنفس الطَّريقة الَّتي كان يتصرَّف بها، والَّتي كان قد أَخبرني بها مراراً أَثناء لقاءاتنا، حين كان يخبرني بما كان يجري بينه وبين المحقِّقين، لم أَكن أَفهم أَنَّ تلك الطَّريقة تتطلَّب إرادة من حديد لاحتمال هول العذاب الَّذي سينزلونه بي.

- أَنا حفيد الشَّيخ عبد القادر...هل تعرف الشَّيخ عبد القادر؟ سأَلته محاولاً أَن أَجد مدخلاً آخر للحديث.
- وأَبوك؟ من أَبوك؟
- أَبي مات في دير ياسين، قُتل في المجزرة.
- حفيد الشَّيخ لا يخجل أَن ينتمي للشُّيوعيِّين؟
- جدِّي كان بطريقة ما شيوعيَّاً.
- أَنتَ عار على أَبيك وجدِّك.

أَرسلوني في عربة عسكريَّة، في اللَّيل، بعد منتصف اللَّيل، إلى مبنى المخابرات العامَّة في عمَّان، وعادوا ليحقِّقوا معي من جديد، وعدتُ من جديد للاعتراف بأَنِّي شيوعيٌّ ولا أَندم على ذلك، مع أَنِّي لم أَكن شيوعيَّاً، ولا أَعرف إلاَّ النِّزر القليل عن الشُّيوعيَّة، هي فقط تلك الأَشياء الَّتي كان نهرو يقولها لي أَثناء زياراته لي.

كانوا يطلبون منِّي أَن أَعترف على رفاقي، وأَنا لم أَكن أَصلاً أَمتلك شيئاً أَعترف به. لم يكن لي رفاق لأَعترف عنهم، ولم أَكن شيوعيَّاً، ولم أَحضر اجتماعاً واحداً للشُّيوعيِّين.

في نهاية المطاف، حين يعجزون، يطلب منِّي المحقِّق أَن أُوقِّع على استنكار للحزب، ومقابل ذلك أَخرج.

- **ورقة واحدة فقط، بل جملتان، توقِّع عليهما وتعود إلى بيتك، تعلن فيهما براءتك من الحزب، نهرو بنفسه وقَّع، ومعظم رفاقك وقَّعوا أَيضاً.**
- **لن أُوقِّع حتَّى لو فصلتم رأسي عن جسدي.**
- **أَنتَ إذن من يحكم على نفسه بالسَّجن، لا أَنا...يقول المحقِّق.**

في المحكمة العسكريَّة قال القاضي العسكريُّ إنَّه يحكم عليَّ بالسَّجن أَربع سنوات كي يُعاد تأهيلي من جديد، لأَترك الأَحزاب الهدَّامة الَّتي تسعى لتقويض الوطن.

في السِّجن التقيتُ بنهرو، كان قد سبقني إلى هناك.

- هل اعترفتَ بالفعل؟ سألته.
- تلك وسيلة المحقِّق كي يجعلك تفقد الثِّقة بنفسك وتعترف....أَجاب، ثمَّ أَضاف:
- هل هيئتي هيئة رجل اعترف؟

كان قد أَصبح بلا أَظافر، لا في اليدين ولا في القدمين، وكان قد فقد الرؤية بعينه اليمنى لذا كان حزيناً، صار يقول لي إنَّ المقاتل أَحوج ما يكون إلى عينه اليمنى، وكتفه الأَيمن، وسبَّابته اليمنى، لأَنَّه لا يستطيع أَن يصوِّب بدون هذه الأَعضاء.

- هل كنتَ مقاتلاً؟
- كنتُ أُعدُّ نفسي كي أَكون مقاتلاً ذات يوم.

أَنا أَيضاً كنتُ أُعدُّ نفسي كي أَكون مقاتلاً لكنَّهم رفضوني، قالوا لي عليك أَن تجد مهنة أُخرى وإلاَّ ستكون أَوَّل من يموت، وستموت بلا مقابل....قلتُ لنفسي.

سجن المحطَّة محطَّة لا يمكن أَن تكون عابرة في الحياة، ينقسم إلى خمسة أَقسام كبيرة، ساحات، والسَّاحة تحيط بها مجموعة من الغرف، يُسمَّى كلٌّ منها (شبك) يضمُّ سجناء بتهم مختلفة، وقد خُصِّص الشَّبك رقم 1 للمعتقلين بتهم سياسيَّة، والشِّباك الأَربعة الأُخرى للسُّجناء الَّذين يُطلقون عليهم صفة المدنيِّين أَو العسكريِّين.

شبك السِّياسيِّين يحوي تسع عشرة غرفة، أَربع غرف شرقيَّة، وثلاث غرف غربيَّة، واثنتي عشرة غرفة جنوبيَّة.

غرفة الحزب الشُّيوعيِّ الفلسطينيِّ رقمها أَربعة، والحزب الشُّيوعيِّ الأُردنيِّ رقمها أَربعة عشر، والجبهة الشَّعبيَّة عشرة، وفتح من الغرفة الخامسة حتَّى الثَّامنة، وهكذا....

كان السُّجناء السِّياسيُّون يختلطون مع بقيَّة السُّجناء أَثناء النَّهار، يحاولون استمالتهم، والتأثير عليهم، والسُّجناء كانوا يكنُّون احتراماً استثنائيَّاً للسُّجناء السِّياسيِّين، لكنَّني، مع ذلك، كنتُ أُحاول أَلاَّ أَقترب منهم كثيراً، أَو أَختلط بهم، لأَنِّي لم أَكن أَشعر بودٍّ كبير تجاههم.

السُّجناء السِّياسيُّون كانوا أَكثر لطفاً في التَّعامل معي.

السِّجن كان يُعتبر جنَّة مقارنة مع أَقبية التَّعذيب، والزَّنازين الضيِّقة، والتَّحقيق.

في السِّجن مكتبة، وسينما، وتلفزيون، ومدرسة، وعيادة، ودورات تأهيل مهنيٍّ، وساحة فيها مقاه بوسعك شرب الشَّاي فيها، وبشر بوسعك الحديث إليهم، والضَّحك معهم، والمزاح.

أَعطوني برشاً* في زاوية الغرفة، وراحوا يتلون عليَّ ما يتيسَّر من وصاياهم، وينادونني يا رفيق.

كانت الحياة مشتركة بين الجميع، تنظيمات ذات مشارب مختلفة، فهمتُ أَنَّهم في الخارج مختلفون، لكنَّهم في السِّجن متَّفقون على السِّجن، نتعاون في الغرفة على كلِّ شيء، على تنظيف الغرفة المقسومة إلى قسمين، نأكل معاً، نشرب معاً، نخرج إلى السَّاحة، نصطفُّ في طابور ونمارس رياضة الصَّباح، نجلس في المقاهي في ساحة السِّجن، نستمتع بأَشعَّة الشَّمس الَّتي كان لها مذاق آخر هناك.

العدُّ الأَوَّل يبدأُ عند الظُّهر، بعد إغلاق الأَبواب الَّتي تُغلق حتَّى الثَّانية ظهراً، والعدُّ الثَّاني بعد إغلاقها مساء في السَّادسة، وما بينهما تأتي الزِّيارات، مرَّة صباحاً، ومرَّة بعد الظُّهر، تأتي الأَطعمة، والملابس، والنُّقود، وأَنا لم يكن ثمَّة لي من يزورني.

أَنا يتيم من دير ياسين بلا أَهل، قتل اليهود أَهلي، وأُمِّي ماتت، وجدِّي مات، وخالي ربَّما أَضاع عقله، ربَّما لا يعرف أَصلاً أَنِّي في السِّجن.

كنتُ في بعض الأَحيان أَشعر بالحزن حين يخرج السُّجناء إلى شبك الزِّيارة.

***البرش: فراش السَّجين كما يُطلق عليه السُّجناء.**

أُصغي إلى سمَّاعة السِّجن وهي تنادي على الأَسماء، يبدأُ السُّجناء بتغيير ملابسهم، يشعرون بالحماسة، ملامح وجوههم تتغيَّر، يتضاحكون، وأَنا أُقعي في زاويتي مثل كلب حزين، ونهرو يطبطب على كتفي.

أَتمنَّى في دخيلتي لو يأتي لزيارتي، لو أَخرج مرَّة واحدة فقط إلى شبك الزِّيارة.

اليهود لم يتركوا في دير ياسين لي من يزورني.

حين سمعتُ اسمي ذات مرَّة في السمَّاعة لم أُصدِّق، نظرتُ حولي كي أَتأَكَّد أَنَّه اسمي أَنا، وأَنَّني لم أُخطئ السَّمع، كان الأَمر أَشبه بعرس، الرِّفاق انتفضوا في أَماكنهم، حثُّوني على أَن أَنهض وهم يزفُّونني، دفعوني كي أُغيِّر ملابسي وأَخرج، شجَّعوني، وأَنا أَتساءل في سرِّي عن الزَّائر من يكون، هل هو خالي؟ هل ثمَّة من أَخبره أَنِّي مسجون؟ هل هي فتحيَّة تذكَّرتني أَخيراً وجاءت لزيارتي؟

تهتُ أَمام شبك الزِّيارة، تأَمَّلتُ النَّاس على الجهة الأُخرى، لم يكن ثمَّة من أَعرفه.

- هنا.....قال الشُّرطيُّ.
- هنا؟ سأَلتُ....
- نعم...أَجاب.

استقبلني الرَّجل باسماً....

- أَنا أَحمد عبد الفتَّاح...قال.

كلُّ الحماسة الَّتي كنتُ أَشعر بها انطفأَت فجأَة.

- أَهلاً بك....
- هل تذكرني؟

هززتُ رأسي بالنَّفي.

- التقينا أَيَّام مات جدُّك...أَنا صديق خالك.
- خير؟ هل جرى شيء لخالي؟

- خالك مات...
- جدٌّ؟
- أَي والله، رحمه الله.

لم أَستطع أَن أَتأَكَّد من مشاعري إن كنتُ حزيناً بالفعل لموته أَم إنَّ الأَمر برمَّته لم يعنيني.

- كيف مات؟ ومتى؟
- مات منذ أُسبوع، يوم السَّبت الماضي، ودفنَّاه، وجدناه في فراشه ميتاً في الصَّباح، كان مريضاً، وكان يشعر بدنوِّ أَجله، وأَوصاني أَن أَزورك.
- لماذا لم يزرني بنفسه قبل موته؟
- صدِّقني إنَّه لم يخرج من الكسَّارة طوال العام الماضي لو مرَّة واحدة.
- رحمه الله...
- أَوصاني أَن أُعطيك أَشياءه بعد موته، سأَحتفظ بها ريثما تخرج، أَحضرتُ لك بعض الطَّعام والشَّراب، وثلاثمئة دينار هي كلُّ ما كان معه، تركتها لك في أَمانات السِّجن، وتركتُ معها ورقة فيها عنواني، حين تخرج أَنتظرك.

الآن ما عاد لي أَحد في هذا الكون.

أَبي مات، وأُمِّي ماتت، وجدَّاي ماتا، وجدَّتاي ماتتا، وشقيقي مات، وعمَّتي ماتت، وأَعمامي وزوجاتهم وأَولادهم ماتوا، وخالاتي متن، وها هو آخر خال لي يموت.

لم أَفهم نفسي تماماً، هل كنتُ حزيناً بالفعل أَم إنَّني كنتُ أَتصنَّع الحزن والرِّفاق يعزُّونني بخالي، ويقدِّمون القهوة السَّادة؟

اللَّعنة على دير ياسين الَّتي لم تترك لي لو جداراً واحداً خلفي، أَيَّ أَحد، أَيَّ شيء أَستند إليه فيسندني.

أَنا ابن المجزرة، اللَّعنة الَّتي تطاردني منذ ولادتي، ولا تتركني أَعيش حياتي أَبداً.

- **نحن عائلتك....يقول لي نـهرو مواسياً وهو يشير إلى نفسه وإلى الرِّفاق.**

في السِّجن كنتُ أَحضر الاجتماعات، وأَصبحت أَقرأُ الكتب الَّتي يقرِّرون لي قراءتها، وأُناقشها مع نهرو، تعلَّمت أَن أَكون أَكثر انضباطاً في الحياة، وفي القراءة الَّتي أَصبحتُ أُتقنها بأَقلِّ معاناة ممكنة، مع التَّدريب اليوميِّ عليها لإعادة تقعيد الحروف، وتثبيت شكل الكلمات في وعيي، وصرت أَقلَّ احتياجاً للمرآة.

لم أَكن أَعرف أَيَّامذاك أَنَّ الورم ينمو ببطء شديد، وأَنَّ عليَّ أَن أَسبقه كي لا يفترسني، ويستولي على بقيَّة الحواسِّ، ويغيِّر علاقتي بالعالم.

في السِّجن نستعيد الحياة من الحياة.

الوقتُ هناك أَطول، والأَحداث القليلة البطيئة تترك فراغات في الوقت لذا تجد أَنَّ أَفضل وسيلة لملء الوقت هي استحضار الماضي.

العلاقات في السِّجن علاقات مختلفة، السَّاعة بثلاثة أَشهر، أَو ربَّما أَربعة، لذا ترى النَّاس هناك أَكثر حميميَّة والتصاقاً، أَكثر نقاء، وإِخلاصاً، وبوسعك أَن تعرف عن سجين في ساعتين أَكثر ممَّا ستعرفه عنه في الخارج خلال سنتين.

لكي تتغلَّب على السِّجن لا بدَّ لك أَن تخرج من الزَّمن، وتتوقَّف عن عدِّ الدَّقائق.

كنتُ في البداية مكتئباً، ثمَّ بدأت أَتأَقلم مع الواقع، وأَعيشه كما هو، دون إِضافات، دون مزج بين الدَّاخل والخارج.

الخارج كابوس، حين ترى طيراً عابراً في السَّماء تحسده، وحين ترى البشر قبالتك، على الجبل المقابل، في حيِّ الزَّغاتيت، تُصاب بالاكتئاب...وتحسدهم على أَبسط الأَشياء.

نتجاهل قضبان الحديد الَّتي تضيِّق الخناق على الرُّوح، ونضحك، نسلِّي أَنفسنا ونضحك.

تعرَّفتُ إِلى الكثيرين، أَصبحتُ أَكثر قدرة على التَّفاعل مع البشر، سعيد، وغانم، وخليل، ومحمَّد حسن، ومحمَّد عايد، وجمال، وراجح، وأَحمد سلمان، وغيرهم، ننام معاً، وننهض معاً، ونخرج إِلى السَّاحة معاً، ونسهر معاً، ونقرأُ معاً، ونتمازح، ونضحك رغم كلِّ شيء.

السِّجن حتَّى لو كان جنَّة فهو سجن، هو عقوبة بطريقة أَو بأُخرى، عقوبة للرُّوح أَكثر من كونها عقوبة للجسد.

السِّجن محاولات دؤوبة لخنق الرُّوح، للتَّضييق عليها، لوضعها في قفص كي لا تطير وتحلِّق في السَّماء.

حدَّثتهم عن كرامات جدِّي فحدَّثوني عن كرامات نيوتن وآينشتاين، وكرامات لينين، وماركس، وإنجلز، وكاسترو، وسلفادور ألندي.

حدَّثتهم عن فتحيَّة، فحدَّثوني عن مدام بوفاري، وروزا لوكسمبورغ لكنَّهم كادوا ينقلبون على ظهورهم من الضَّحك وأَنا أَروي لهم ما روته لي في لحظة صفاء عن دوائها الَّذي باعته للنَّاس ذات يوم، زاعمة أَنَّ أَبا جمال أَحضره لها من أَمريكا، وكنتُ أَوَّل من شربه.

- بول؟ يسأَل نهرو.
- بول...أُجيبه، وأُضيف:
- أَخبرتني أَنها كانت تخلط البول بالعصير، وتسقيه للنَّاس على أَنَّ فيه شفاء لكلِّ مرض مستعص.
- هي أَخبرتك بذلك بنفسها؟
- نعم...بنفسها.
- ما زلتُ أَذكر حديث النَّاس عن دواء فتحيَّة السحريِّ. قال نهرو.

راحوا يستعرضون أُسس الحالة النَّفسيَّة للمحتاج، والمريض، وكيف يصبح مستعدَّاً لتقبُّل أَيِّ علاج، ويهيِّئ نفسه له، ويقنعها بجدواه، ما يجعل الدِّماغ يخدع الجسم، فيقوم الجسم بإنتاج موادٍّ كيميائيَّة مشابهة لتلك الموجودة في الدَّواء.

حدَّثتهم كيف كنتُ أَكتب الرَّسائل إلى العالم بحثاً عن زوجها المفقود.....

يومذاك، حين رويتُ القصَّة أَوَّل مرَّة لم تثر محمَّد حسن، وحين كنتُ أَرويها للمرَّة العشرين راح يدقِّق في تفاصيلها.

كنَّا نملك الكثير من الوقتِ لذا كنَّا نعيد القصَّة الواحدة أَلف مرَّة، وفي كلِّ مرَّة كنَّا نضيف تفاصيل تكون قد خطرت لنا فجأَة للتوِّ، وكنَّا قد نسيناها.

ذلك التَّفصيل الصَّغير هو الَّذي أَضاء على جثَّة زوج فتحيَّة، أَبي عمر، حامد عبد الفتَّاح محمود عبد الجبَّار، فجأَة، دون سابق إنذار.

- **أَذكر أَنَّها قالت إنَّه منذ الخروج من فلسطين كان يكرِّر جملة بعينها في اليوم مئة مرَّة كلَّما عانده أَحد في الرأي، كي يحسم الأَمر حين تقع مشادَّة بينهما.**
- **ما هي؟ سأَلوني.**
- **"أَنا من يازور....ولو ينزل(.....) ما بدور.**
- **أَعرفه....قال محمَّد حسن فجأَة، فشعرت بتيَّار كهربائيٍّ يلسعني.**

محمَّد حسن، أَبو داود، كان فدائيَّاً، وكان مسجوناً منذ أَيلول، يناهز الخمسين، غادر مع الثَّورة ثمَّ عاد بعد أَشهر وسلَّم نفسه، وسجن.....

- **أَبو عمر....قال.**
- **نعم...أَجبتُ.**
- **حامد عبد الجبَّار...قال.**
- **نعم...أَجبتُ.**
- **قصير القامة...**
- **أَعتقد ممَّا أَذكره أَنَّه كذلك.**
- **من يازور.**
- **نعم...أَجبتُ.**
- **له شاربان يشبهان شاربي هتلر.**
- **نعم أَجبتُ.**
- **أَعرفه...عاد يقول.**
- **هل أَنتَ جادٌّ؟ سأَلتُ.**
- **وهل تراني أَمزح؟**
- **من أَين تعرفه؟**
- **تسلَّلنا معاً عام 1954 إلى فلسطين....وأُلقي القبض علينا في الجليل، هو قُتل مع صديق آخر، وأَنا واثنان آخران سجنَّا...سجنتُ سبع سنوات.**

- خبير سجون....علَّق خليل....فضحكوا.
- أَتعرف لماذا قتلوه بالذَّات؟
- لا...
- من أَجل شاربيه، شارباه أَثارا حساسيَّة فيهم...ظنُّوا أَنَّه يتشبَّه بهتلر، لولا شارباه ربَّما لكان الآن على قيد الحياة.
- لماذا لم يسلِّموا جثَّته؟
- يُقال إنَّهم دفنوه في مقبرة أَرقام*....شمال طبريًّا، هكذا سمعتُ وأَنا في السِّجن.
- لماذا يدفنونه في مقبرة الأَرقام؟....
- هم عادة ينتقمون من الجثث، ويعاقبون أَهاليهم، يسجنون الموتى، أَتعرف؟ ما دامت زوجته لم تسمع عنه أَخباراً، فأَنا بتُّ متأَكِّداً أَنَّه مدفون في مقبرة الأَرقام تلك.
- هل كنتَ تعرف زوجته فتحيَّة؟
- لم أَكن أَعرف شيئاً عنه، سوى اسمه وأَنَّه من يازور، وكان دائماً يردِّد تلك الجملة الَّتي قلتَها، التقينا مصادفة في القدس، لم يخبرنا بشيء عن نفسه، عرَّفني إليه صديق مشترك، استُشهد في السِّجن، اسمه حسن عمران، خطَّطنا لعبور الحدود، والإغارة على اليهود....وبحثنا عن أَضعف نقطة كي نعبر منها...

شعرتُ بقوَّة ما، موجة تأتي من الأَسفل وترفعني إلى الأَعلى....

---

*مقابر الأَرقام:مقابر تحتجز فيها سلطات الاحتلال العسكري الإسرائيلي رفات شهداء فلسطينيِّين وعرب، مقابر مغلقة عسكريّاً....تبقى طيَّ الكتمان ولا تنشر أيَّ معلومة شخصيَّة تتعلَّق بهذا الشَّهيد أَو ذاك. المصدر-موسوعة المصطلحات والمفاهيم الفلسطينيَّة-ص573-دار الجليل.

كنتُ أُريد أَن أَصل فتحيَّة الآن بأَيِّ ثمن، وكنتُ في داخلي عاتباً عليها لأَنَّها لم تفكِّر بزيارتي....

قضيتُ اللَّيل ساهراً أَنتظر الصَّباح، أَنتظر أَوَّل زيارة لأَيِّ سجين كي أُرسل لها الخبر.

ها أَنا أَخيراً أَعثر عليه مصادفة، وأَنا في السِّجن، دون مقدِّمات.

ها هو يأتي فجأَة بنفسه ليفسِّر غيابه.

كلُّ الرَّسائل الَّتي أَرسلتها لهذا العالم عادت إلى المرسل، إلى مكتب بريد المخيَّم، المكان الوحيد الَّذي ما كان بوسعي أَن أَكتب له رسالة هو " إسرائيل" مقبرة الأَرقام في "إسرائيل".

فتحيَّة ماتت.....عاد الزَّائر بعد أَيَّام يقول....

فتحيَّة ماتت، قال إنَّه أَبلغ ابنتها بالخبر....فبكت وكأَنَّها الآن فقط تفقده، كأَنَّه يموت الآن من جديد بين يديها.

فهمتُ سبب عدم زيارتها لي.

لماذا يموت الأَموات مرَّتين، وثلاثاً، وأَربعاً؟ لماذا مات النَّاس في دير ياسين، قُتلوا، ثمَّ عادوا لقتلهم من جديد؟ لماذا ينهضون كلَّ يوم ويؤدُّون أَدوارهم بمهارة، وحرفيَّة على خشبة المسرح ويموتون من جديد؟

هل يمكن للكاتب أَن يغيِّر السِّيناريو؟ هل يمكن أَن أَنام ذات يوم، ويتغيَّر الحلم؟

كتبتُ لها رسالة قصيرة، بكيت موتها خلالها وموته.

"الآن فقط أَصبح عليك أَن تشعري بثقل الخيانة، خيانتك له، ربَّما لو كان يعيش في فنزويلا لما كانت النَّتائج ستفضي إلى المكان ذاته، خيانة الشَّهيد هي أَقسى الخيانات".

عنونتها، كتبت العنوان من الشِّمال إلى اليمين، على أَمل أَن يتمكَّن ساعي البريد من قراءتها، وأَلاَّ يكتب عليها "تعاد إلى المرسل...إلى سجن المحطَّة".

كتبتُ على الظَّرف العنوان بخطٍّ واضح وصحيح من الشِّمال إلى اليمين:

مقبرة المخيَّم، قبر المغفور لها بإذن الله تعالى الحاجَّة الفاضلة فتحيَّة محمَّد شاهين، من يازور – فلسطين.

الفصل الرَّابع: الخال

-1-

خالي مات....

كان أَقرب إلى شبح، ظلٍّ، شيء زائد عن حاجة العالم، لذا بقي لا يلفت الانتباه، النَّاس حوله يتصرَّفون وكأَنَّه غير موجود، وهو يتماهى مع ذلك، بصمته، ولسانه المقطوع الَّذي أَطعمه اليهود ذات يوم للكلاب.

كان طويل القامة، ضعيفاً، عظامه ناتئة، فاتح البشرة مثلي ومثل جدِّي، وفي أَيَّامه الأَخيرة أَصبح بلا أَسنان تقريباً، ما فاقم من ضعف جسده، وهزاله.

أَراه لماماً، يمرُّ بالبيت كضيف، يقضي ليلة فيه أَو ليلتين ويعود إلى الكسَّارات، يغيب شهراً أَو شهرين ثمَّ يعود للظُّهور من جديد.

خالي مات....

لم يكن في موته جديد، أُولئك الَّذين لا يشكِّلون جزءاً من حياتنا اليوميَّة لا يثير موتهم الحزن بنفس القدر الَّذي يثيره موت من نراهم ونعيش معهم كلَّ يوم، وكأَنَّنا حين نبكي نبكي أَنفسنا، نبكي شيئاً ضاع منَّا، عُضواً فقدناه فترك فراغاً في حياتنا اليوميَّة وعلينا أَن نبكي حتَّى نعتاد ذلك الفراغ بعد وقت، ثمَّ ننسى، ونتأَقلم مع وضعنا الجديد، تماماً كما كان على أُمِّي أَن تعتاد قدمها الخشبيَّة بعد أَن ظلَّت قدمها عالقة هناك، بين صخرتين، في الطَّريق بين دير ياسين وعين كارم.

يمرُّ بالبيت مثل ضيف...لذا ربَّما مات مثل ضيف أَيضاً.

كنتُ قد نسيته تماماً حين غيَّرت قفل باب البيت ذات يوم، وحين عدتُ وجدتُه جالساً أَمام العتبة، حاضناً رأسه بكفَّيه.

لم يسأَلني لماذا غيَّرت القفل وتجاهلته، كنتُ أَصلاً قد نسيتُ وجوده حين غيَّرتُ القفل، مدَّ يده نحوي بالمفتاح، ففهمتُ أَنَّه يطلب مفتاحاً جديداً، فتحتُ الباب ودعوته للدُّخول، سلَّمته نسخة من المفتاح الجديد، سأَلني بإيماءات من يديه عن أَحوالي، فأَجبته أَنِّي بخير....وسأَلته عن أَحواله، فلم يجب، صنع لنفسه شاياً، وجلس.

لم أَكن أَشعر بالإهانة تجاه صمته، ولا لأَنَّه لم يصنع لي شاياً معه، فقد كنتُ متعوِّداً على تصرُّفاته.

قضى عمره عابساً، لا يضحك أَبداً، ربَّما كان يخاف إن ضحك أَن يظهر لسانه المقطوع، ثمَّ أَصبح يخاف ظهور لسانه ولثَّته شبه الفارغة من الأَسنان.

حين أَفقتُ في الصَّباح الباكر كان قد غادر بعد أَن ترك لي مبلغاً من المال، كان ذلك قبل السِّجن، وكانت تلك آخر مرَّة أَراه فيها.

بحثتُ عن الرَّجل الَّذي زارني في السِّجن وأَخبرني بموت خالي، أَحمد عبد الفتَّاح، ذهبتُ إلى العنوان الَّذي تركه لي، زرته في بيته، قابلني بالتِّرحاب، هنَّأني بسلامة الخروج، لم أَكن في الحقيقة أَشعر بأَنِّي خرجتُ، كان السِّجن ما يزال فيَّ، كنتُ أَعيشه كلَّ يوم وليلة، أَنهض من نومي على صوت قدم أُمِّي الخشبيَّة الَّتي ظلَّت تدقُّ في رأسي حتَّى بعد موتها، أُحدِّق حولي، أَمضي دون إرادة منِّي كي أَتناول إبريقاً بلاستيكيّاً من تلك الَّتي كانت معلَّقة بخيوط رفيعة نحمل أَحدها ونمضي به إلى "الفورة"* أَبحث فلا أَجده، أَفتح عينيَّ وأُدرك لحظتذاك أَنِّي خارج السِّجن، في البيت، فيصيبني شعور بالكآبة.

في العاشرة تماماً أَكون أَمام بوَّابة السِّجن، أَزور الرِّفاق، أَقضي معهم بعض الوقت، ثمَّ أَعود إلى البيت.

أَنهيتُ زيارتي وتوجَّهت إلى العنوان، الرَّجل استبقاني حتَّى العصر، أَعدَّ لي مأدبة تنمُّ عن كرمه، وحبِّه لخالي، راح يحدِّثني عنه، عن علاقتهما، وعند العصر حين استأذنته بالخروج، أَخرَجَ من غرفة جانبيَّة ثلاثة صناديق خشبيَّة، وحقيبتين جلديَّتين كبيرتين.

- هذه أَغراض خالك، عدا عن فراشه....كان بالياً لذا تركته للحارس الجديد في الكسَّارة.....

ما الَّذي يملكه خالي ليورِّثه لي غير جنونه، وهمومه، وصمته، ونظراته القلقة

---

*الفورة: اسم يُطلق على المراحيض العامة داخل السِّجن.

المتوجِّسة الَّتي كانت تخيفني في طفولتي؟...كنتُ في البداية أَسأَل نفسي.
أَمتعته كانت مغبرَّة مثله....مثلما كان دائماً حين كنتُ أَراه.
أَوَّل ما فاجأَني وأَنا أَفتح أَحد الصَّناديق أَوراقه المعنونة بكلمة فلسطين، كانت أَوراقاً قديمة صفراء، بعضها مهترئ، ثمَّة قواشين ملكيَّة باسم جدِّي صادرة عن حكومة العثمانيِّين في دير ياسين، ووثيقة زواجه من ياسمين، صادرة من القدس، عن حكومة الانتداب، وأَوراق أُخرى، عقود بيع وشراء، وصور قديمة بالأَبيض والأَسود، بحثت بينها عن صورته مع ياسمين حتَّى وجدتها.....
آه ياسمين!
ياسمين الجميلة....ذات الرِّداء الأَسود، والشَّعر الأَسود الَّذي تمرَّد على المنديل وانفلت منه، وتناثر على كتفيها مثل شلاَّل ماء....
ياسمين ذات الرِّداء الأَسود أَكلها الذِّئب....
ياسمين أَجمل نساء فلسطين، تأَمَّلتها طويلاً دون أَن أَفهم سرَّ ارتباطي بها، وحبِّي الَّذي لا أَستطيع تفسيره، ربَّما جمالها الطَّاغي هو الَّذي كان يجعلني متعلِّقاً بها، ربَّما طريقة أُمِّي في الحديث عنها، والتغزُّل بها على غير عادة النِّساء، جمالها كانت أُمِّي تقول إنَّه لم يُخلق مثله في فلسطين.
كانت الصُّورة تتراقص أَمامي، تارة أَراها ياسمينين، وتارة ثلاث، وتارة تهرب الصُّورة كلُّها، وتارة تمتلئ الغرفة بمئتين وخمسين ياسمين...
أُحاول أَن أَقبض عليها بأَصابعي...أَتحسَّس صورتها، وفجأَة أَجدني أَبكي.
وضعتُ صورتها في جيبي، عند القلب، كي لا تهرب منِّي من جديد.
عدتُ أُقلِّب الصُّور في قعر الصُّندوق، وارتجفت يدي وأَنا أُخرج أَكثر من ثلاثين صورة من ظرف أَبيض....
هل يمكن أَن تكون تلك الصُّور صور المذبحة؟

خفق قلبي بعنف، ارتجفت أَصابعي الَّتي تقبض على الصُّور، ثمَّة رجل مقيَّد إلى شجرة يحترق والجُّنود حوله، بلباسهم العسكريِّ، وسلاحهم الفرديِّ، ومجنَّدات نساء، كلُّهم شباب في مقتبل العمر، لم يتجاوز أَكبرهم الخامسة والعشرين، وثلاث صور لخالي وهو مقيَّد إلى شجرة أُخرى يحيط به أَكثر من عشرة جنود، وصور أُخرى لجثث، وأَشلاء، ونساء يصرخن، ورجال يموتون، وجثث أَطفال، بقي الصَّوت، لم تستطع الصُّور أَن تنقل أَصواتهم، صراخهم، هدير آليَّاتهم، ضحكاتهم، صوت الرَّصاص، الأَنين، والصُّور لم تفرِّق بين الماء والدِّماء....

لم تعجبني الصُّور....شعرتُ في لحظة ما أَنَّها تزيِّف الواقع، أَو أَنَّها جزء بسيط ممَّا جرى، شعرت بالغضب، المجزرة حين تقوم في رأسي، تصبح بحاجة إلى أَلف أَلف مصوِّر كي يحيط بتفاصيلها، وملايين الصُّور ليست المتحرَّكة فحسب، إنَّما الصُّور الَّتي تعكس أَعماق البشر، تصوِّر ما يجري هناك، في دواخل البشر، ما يعتمل كلَّ لحظة في العمق، تصوِّر الدُّموع الَّتي تتدفَّق شلاَّلاً في لحظة ما، في وجدان إنسان، في الدَّاخل.

كدتُ في لحظة ما أَن أُمزِّقها، ثمَّ عدلتُ عن قراري.

ربَّما تكون الصُّور مؤثِّرة، ربَّما، وتعكس الواقع بصدق، من يدري؟ ربَّما أَنا فقط أَراها بشكل باهت، لأَنِّي أَرى كلَّ شيء مقلوباً، ربَّما لم أَستطع رؤيتها كما ينبغي لي أَن أَراها، فأَنا في نهاية المطاف أَفهم الأَشياء بطريقة مختلفة عن النَّاس.

عكستها عبر المرآة ونظرتُ إليها، لكنَّ مشاعري لم تتغيَّر تجاهها.

أَعدتها إلى الصُّندوق، وعدتُ لأَتأَمَّل صورة ياسمين....ثمَّ رحتُ أُقلِّب الرَّسائل، ثمَّة عشرات منها مكتوبة بالعبريَّة.

مجرَّد الكتابة بالعبريَّة أَيَّامذاك كانت مسأَلة تثير الشُّبهة.

هل يمكن أَن يكون خالي جاسوساً؟ ما الَّذي تفعله تلك الأَوراق المكتوبة بالعبريَّة معه؟ ولماذا يحتفظ بها؟

بدا الأَمر مريباً إلى حدٍّ بعيد، وظلَّ كذلك حتَّى وجدتُ دستة من ظروف المكاتيب بين ملابسه....جميعها كانت مرسلة من مصدر واحد، في لندن، من امرأَة تُدعى سيرينا نوسين، كتبت اسمها على الظَّرف بالإنجليزيَّة مع العنوان.

في أَعماقي ثمَّة توجُّس، وخوف، وتيَّار يسحبني إلى الأَسفل، قلبي يخفق في صدري، والأَسئلة تتناهبني، وأَنا أُقلِّب أَغراضه، وثيابه....

ثمَّة ثلاثة دفاتر علاها الغُبار، واصفرَّت أَوراقها، وامتلأَت بآثار الشَّاي والقهوة، تناولتها من قعر الصُّندوق الخشبيِّ ورحت أُحاول فكَّ رموز الخطوط المتشابكة فيها....

الصَّامتون هم من عليهم أَن يثيروا الرِّيبة في الآخرين، فيهم، في أَعماقهم، ثمَّة ثورات، وبراكين تفور، لكنَّ ذلك لا يظهر على ملامحهم، لأَنَّهم ببساطة يتعلَّمون مع الزَّمن كيف يخفون ذلك كلَّه خلف وجوه لا تشي أَبداً بما يدور في أَعماقهم.

يومذاك فقط....بدأَت أَعرف من يكون خالي ياسين الَّذي سمَّتني أُمِّي باسمه.

أَليس من الجنون أَن يُقام مشفى للمجانين على أَرض دير ياسين؟ أَليست تلك مفارقة ما بعدها مفارقة؟

ربَّما كان على الله أَن يتدخَّل بنفسه يومذاك كي يوقف المجزرة، أَن يصنع معجزة ما، كان عليه أَن يتدخَّل بأَيَّة طريقة، وبأَيِّ شكل....(كتب خالي).

ثمَّ عاد يكتب في مكان آخر:

ما علاقة الله بالأَمر؟ ولماذا علينا أَن نحمِّله مسؤوليَّة ضعفنا، وخذلاننا لأَنفسنا؟ لماذا يلجأُ المظلوم الضَّعيف بالذَّات إلى الله لينصره؟ لماذا يكون هو بالذَّات من يَنشُد العدالة على هذه الأَرض؟ أَليست تلك طريقة لتوكيل الآخرين بما عليه أَن يفعله بذاته؟

ليست المذبحة هي المهمَّة في الأَمر، بل فلسفة المذبحة...(كتب محاولاً أَن يفلسف الأَمر نقلاً عن حنَّا نوسين).

هذا المكان شرِّير...فهنا، بالضَّبط هنا، وُلد الشَّيطان ذات يوم....(استعرتُ تلك الكلمات من حنَّا نوسين).

حسناً، نمتُ في اللَّيل مع ثلاثين جثَّة في غرفة واحدة، كانت عيونهم مفتوحة، ووجوههم ملتوية، وأَجسادهم باردة، ثمَّ وجدتهم فجأَة ينهضون من موتهم، ويحيطون بي، صنعوا حولي حلقة وراحوا يدورون مثل مروحة وهم يهلِّلون بكلمات عربيَّة لم أَفهم منها شيئاً سوى (الله)، دارت الأَرض بي، وصرختُ، وأُغمي عليَّ.(حنَّا نوسين).

هذا المكان يجعل المرء شرِّيراً.(قالت حنَّا نوسين).

حاولوا في البداية تغيير وجه المكان، شيَّدوا مستعمرة غفعت شاؤول "ب" على أَطراف القرية، أَقاموا احتفالاً بهذا الأَمر، على أَمل أَن تمتدَّ وتبتلع القرية، لكنَّهم اكتشفوا أَنَّ

القرية ما زالت مسكونة بأَشباح ضحايا دير ياسين...وفشلوا في تغيير هذا الواقع.(حنَّا نوسين).
توقَّف التَّاريخ هنا، والزَّمن، وبقيت القرية قرية أَشباح، لم يتمَّ تشييد قرية مزدهرة هنا، فوق الأَنقاض، ولم تستمرَّ الحياة في هذا المكان، أَتعرف لماذا تمَّ أَخذ الضَّحايا من هنا، وإحضار ضحايا آخرين هم نحنُ؟ (كتبت حنَّا نوسين).
الضَّحايا في دير ياسين لم يكونوا بشراً فقط: الحمير، والخيل، والبقر، والدَّجاج، والأَرانب، والحمام، والخرفان، والماعز، والأَشجار، والشَّوارع الَّتي شربت دماء أَصحابها، والسَّناسل، والبيوت كانوا أَيضاً ضحايا، الحيونات منها ما ذُبح في دير ياسين، ومنها ما سُرق، حمّل في شاحنات إلى خارجها وذبح حيث لا أَدري أَين.(كتب خالي).
دير ياسين كانت ضحيَّة من أَوَّل شبر فيها حتَّى آخر شبر، كأَنَّها قطعة واحدة، شيء واحد، صورة لبشر خلفهم بيوتهم، وحولهم حيواناتهم، مزَّقتها يد سوداء ثمَّ أَحرقتها وذرَّت رمادها للرِّيح كي لا يبقى منها ثمَّة أَثر.(فلسفة خالي).
الصَّلاة قد تصبح بكاء فقط(من شعر خالي ياسين).
أَليس من العبث أَن يُقام مشفى للمجانين فوق أَشلاء القرية الممزَّقة؟(تعود حنَّا نوسين لتسأَل).
لم أَكن أَفهم بعدُ كيف يمكن لرجل أَن يقتحم الموت من أَجل حبيبته، شعرتُ في الحقيقة لحظتذاك بالغيرة، وأَدركتُ تفاهة حبِّ شراغا، وكنتُ أَتمنَّى لو كنتُ أَنا ياسمين، رغم ما كانت تعانيه لحظتذاك ياسمين.(حنَّا نوسين).
في فوضى المجزرة، واختلاط الأَشلاء، وتداخل القتل، من يضمن أَن أَيَّاً منَّا ظلَّ هو نفسه، لم يختلط بالآخرين ليخرج بعد ذلك شخصاً آخر تماماً؟ أَو جثَّة أُخرى؟
هل تشوِّه المجازر البشر من الدَّاخل؟ لا أَعني الضَّحايا فقط، بل القتلة أَيضاً، كيف بوسع القاتل بعد المجزرة أَن يأكل مثل البشر، ويعيش، وينام ملء عينيه؟ هل يرى

وجوه الضَّحايا تلاحقه في المنام؟ هل يتفجَّع عليها؟ هل تقلقه؟ ما هو شكل القاتل من الدَّاخل؟ كيف يكون؟ (تتساءل حنَّا نوسين).

كانت ياسمين أَجمل من أَن يمرُّوا عليها مرور العابرين، أَقام يوشع عليها مزاداً، أَطلق طلقة في الهواء وهو يعرضها على الملأِ:

- **انقل ثلاث جثث خلف السُّور وفز بجولة مع جسد ياسمين.**
- **ونحن بماذا سنفوز؟ بجولة مع ياسمين أَيضاً؟ سأَلت إحدى المجنَّدات متهكِّمة.**
- **لا...بجولة مع زوج ياسمين.**
- **أَين هو؟**
- **مربوط إلى الشَّجرة هناك مثل كلب.**

كانوا يعاينون البضاعة قبل نقل الجثث، وكان يسمح لهم بذلك، باللَّمس، بتفقُّد الأَعضاء، الثَّديين، أَو الفخذين، أَو الفرج، كان ذلك يجعلهم أَكثر حماسة، واندفاعاً في العمل.

لماذا تكون رائحة الموت مقيتة؟ وهل يمكن مثلاً أَن يرتقي البشر بذائقتهم ذات يوم ويصنعوا العطر من لحم الموتى؟ تتزيَّن المرأَة وتتبرَّج ثمَّ ترشُّ عطراً مصنوعاً من جسد ميت لإغراء القاتل؟

ما الفرق حين يصبح الموت عادة؟ وجبة شهيَّة؟ شَبَقاً؟ إدماناً؟ ما الفرق؟ ولماذا لا يحضِّرون العطر من جثث البشر؟(يكتب خالي).

ياسمين كانت قد فقدت عقلها تماماً، جلست أَمام المرآة تمشِّط شعرها، وتتزيَّن للقتلة الَّذين راحوا يغتصبونها واحداً وراء الآخر، وتغنِّي:

ليَّا وليَّا ويا بنيَّه

يا وردة على الميَّا

سمرة وجرحتي قلبي

ردِّي السَّلام عليَّا

تضحك فجأَة حتَّى تنفلت من ذاتها....ثمَّ تجهش فجأَة في البكاء.

أَربعون جنديَّاً فازوا بها ذلك اليوم منذ العصر حتَّى منتصف اللَّيل، ومجنَّدتان فازتا بخالي، لكنَّهما خرجتا تشكوان من أَنَّه غير صالح لاستخدام النِّساء، وأَن تجارتهما بارت، وأَنَّهما راهنتا على حصان مخصيٍّ لا أَكثر، ما دعا المجنَّدات للتَّراخي وهنَّ يعلقن ضاحكات عليهما.

دير ياسين المحاصرة من كلِّ الجهات، المغلقة، كانت مسرحاً للعبث، سيقول نهرو بعد خروجه من السِّجن، وقراءته لبعض تلك المذكَّرات، وسيضيف: كان الأَصل أَن يكون كافكا هناك كي يرى العبث على حقيقته...

" أَنا قذر يا ميلينا، قذر بلا حدود، ولذلك أَصرخ كثيراً بشأن الطَّهارة، كيف يمكن أَلاَّ تشعري تجاهي بالخوف أَو الاشمئزاز؟"-كافكا.

ربَّما ستصبح دير ياسين علامة فارقة في التَّاريخ إن قدِّر للبشريَّة أَن تغتسل جيِّداً، وتتطهَّر من دماء الضحيَّة، آنذاك، على اليهوديِّ إمَّا أَن يتبرَّأَ ممَّا جرى في دير ياسين ويدينه، أَو يصبح معادياً للإنسانيَّة.(نهرو).

فلسطين هي المسيح الجديد الَّذي رُفع على الصَّليب في القرن العشرين.

سأَكتب كتاباً مقدَّساً أُسمِّيه (يس)، وأَكتب فيه:

فناداهم الربُّ قائلاً: وفلسطين البارَّة ماذا أَنتم فاعلون بها؟

- نفنيها عن بكرة أَبيها...لا نترك رجلاً، ولا امرأَة، ولا طفلاً، ولا شجرة، ولا عابداً في صومعة، ولا آمناً في بيت، ولا شاة، ولا دجاجة، ولا كلباً، ولا قطَّاً، ولا بقرة، ولا حصاناً، حتَّى الدِّيدان في الأَرض نسحقها.

فنادى فجاؤوه بماء وغسل يديه أَمام الجميع.

- أَنا بريء من دم البارَّة فلسطين فانظروا ما أَنتم فاعلون.
- دمها علينا وعلى أَولادنا إلى الأَبد.

يس....ياااااء سييييييين.

يااااااااااء......سيييييييييين.

كانت نقطة سوداء في جبين البشريَّة، ثمَّ أَصبحت البشريَّة ذاتها نقطة سوداء في جبين الكون بعد "إسرائيل".

كيف يمكن بناء دولة على جبل من العظام؟ على الجثث، وبحر الدِّماء، على التَّطهير العرقيِّ، وطرد البشر من بيوتهم، وإبادتهم، أَو تحويلهم إلى لاجئين والعالم اللاَّمتحضِّر يرفع أَياديه في أَروقة الأُمم المتَّحدة موافقاً على "دولة إسرائيل".

هل كانوا يحاولون تنظيف ضمائرهم من أَوساخها لحظتذاك؟ هل كانوا يرتدون القفَّازات كي لا تصوِّر الكاميرات مخالبهم؟ هل كانت أَمريكا تحاول أَن تخلق صورة لها تؤنسها بعد أَن أَبادت السكَّان الأَصليِّين للقارَّة؟

كنتُ أَعرف أَنَّ الاتِّحاد السُّوفييتيَّ كان أَوَّل من اعترف بالمجزرة، ومع ذلك، وجدتُ نفسي فجأَة أَرى الأُمور بطريقة أُخرى، وقرَّرتُ أَن أَكفَّ عن شيوعيَّتي.

- لكنَّه أَمر تكتيكيٌّ...قال نهرو.
- أَنا لا أَفهم إلاَّ الشَّيء الواضح...أَنتَ تعرف، تلك الأَشياء المعقَّدة تجعلني عاجزاً عن القراءة، أَشعر بالحروف تتداخل إلى تلك الدَّرجة الَّتي تفقد فيها معناها؟

بعد نقاش حادٍّ طويل عاد يسأَلني:

- أَين سيذهب اليهود إذن؟

- أَين كانوا قبل ذلك؟ ما دخلي أَين سيذهبون؟ فليعودوا من حيث جاؤوا، كلٌّ إلى بلده.
- لكنَّنا لسنا ضدَّ اليهود، عليك أَن تفهم هذه المعادلة، نحن ضدُّ الصُّهيونيَّة كحركة سياسيَّة استعماريَّة شوفينيَّة تمثِّل امتداد الامبرياليَّة في المنطقة، هناك يهود يناصرون قضايانا، معنا، فلماذا علينا أَن نتخلَّى عنهم؟ هناك يهود يساريُّون مثلنا، شيوعيُّون، يتبنَّون نفس وجهات نظرنا.
- وهل أَسَّس "إسرائيل" اليهوديُّ الطيِّب؟ اسمع يا صديقي، "إسرائيل" تلك سرقت كلَّ عائلتي، قتلتهم بدم بارد، وتركتني كما ترى وحيداً بلا أَهل ولا أَحد، وما دامت الشُّيوعيَّة معها، فأَنا ضدُّ الشُّيوعيَّة، هذا آخر ما لديَّ، وليس لديَّ ما أَقوله بعد ذلك.
- من قال إنَّ الشِّيوعيَّة معها؟
- صوتهم في الأُمم المتَّحدة قال ذلك.
- يعني أَنَّك تنسحب من الحزب؟
- أَنسحب من الحزب.
- أَنت تفهم الأُمور بشكل سطحيٍّ، وخاطئ.
- هذا لأَنِّي أَرى العالم بالمقلوب.

انتهى الحوار، لا أُريد أَن أَكون شيوعيَّاً بعد الآن، ورفيقي يهوديٌّ من أُولئك الَّذين كانوا ذات يوم في دير ياسين، في المجزرة، هكذا اتَّخذت قراري دون سابق إنذار، كيف وافق الشُّيوعيُّون على قرار التَّقسيم لمجرَّد موافقة السُّوفييتِ عليه، هل كان لهم مخالب أَيضاً مثل الآخرين؟

يااااع سيييييين.

أَصرَّيتُ يومذاك على العودة إلى المحقِّق، في مبنى المخابرات، طردوني فعدتُ، طردوني فعدتُ، ثمَّ عادوا لاعتقالي وضربي...

- ما الَّذي تريده؟

- **أُريد أَن أُوقِّع على استنكار الحزب الشُّيوعيِّ ما دام يعترف "بإسرائيل".**

ضحك...وطردني من جديد بعد أَن اعتقد أَنِّي مجنون.

رُفعت الأَقلام، وجفَّت الصُّحف، والسَّماء هوت على الأَرض.

حين اقتادوها صباحاً إلى وسط السَّاحة ورأَت خالي مقيَّداً إلى الشَّجرة عادت إلى رشدها، أَو ربَّما رشدها هو الَّذي عاد إليها، فهي لم تكن قادرة على استعادة شيء في الكون.

راحتْ تُغنِّي له:

ليَّا وليَّا ويا بنيَّه

يا وردة على الميَّا

سمرة وجرحتي قلبي

ردِّي السَّلام عليَّا

- أَين عبد القادر؟ هل قتلوه؟...سأَلها باكياً وهو يراها على تلك الحالة، كان يصرخ، يصرخ، يصرخ، ويسأَل: أَين الله؟ هل يرى ما أَراه؟ كان لسانه لا يزال في فمه، لم يُقطع بعدُ.

تسمَّرت قدماها في الأَرض، ربَّما تذكَّرت في تلك اللَّحظة أَنَّ لها طفلاً اسمه عبد القادر، عمره ثلاثة أَشهر، دفن مع من دفنوا في البئر.

لم يقدَّر له يومذاك أَن يطير من فوق السُّور، ويقوده جبريل في السَّماء ليريه الطَّريق إلى الجنَّة، ربَّما ظلَّت روحه هناك، محشورة في قرارة البئر، ولم يصبح طيراً من طيور الجنَّة.

ياسمييييييين...صرخ....صرخ وهي تخطف مسدَّس أَحد المقاتلين فجأَة وتضعه في رأسها، وتضغط على الزِّناد.

ياسمييييييين.

كيف بوسع المرء أَن يُصبح قاتلاً؟ فكَّرتُ أَن أُؤلِّف كتاباً عنوانه: كيف تصبح قاتلاً في ثلاثة أَيَّام، أَضع فيه خلاصة تلك المعلومات الَّتي تركها خالي خلفه، تجربته في دير ياسين.

هل يكون المرء بوعيه حين يقتل نفسه؟

حسناً، لماذا كان عليها أَن تعيش؟ وكيف؟ كيف كان يمكن أَن تعيش؟ تخيَّلتها عاشت، وتخيَّلتها تجترُّ موت ابنها الَّذي أَلقوه في البئر أَمام عينيها عاماً بعد عام، وخالي وهو مقيَّد إلى الشَّجرة، والجثث، أَعني أَشلاء الجثث المحترقة، والرَّائحة، والدُّخان، وتخيَّلتها تجترُّ أَربعين مقاتلاً اغتصبوها دفعة واحدة، لا، اغتصبوها فرادى، واحداً، واحداً، وتخيَّلتها تجترُّ أُغنيتها، نشيدها الوطنيَّ:

ليَّا وليَّا ويا بنيَّه

يا وردة على الميَّا

سمرة وجرحتي قلبي

ردِّي السَّلام عليَّا

حين يصبح النَّشيد الوطنيُّ حزيناً يصبح بوسعنا أَن نفهم حجم المجزرة، والهزيمة.

النَّشيد الوطنيُّ للشُّعوب المنتصرة عادة ما يكون هادراً، مثل نهر جارف، عالياً، مثل موجة تصعد في السَّماء، في السِّجن تعلَّمت بعض لغة الموسيقا، تلقَّيتُ أَكثر من ستِّين درساً، وتعلَّمت أَن أَعزف على العود، لكنِّي بقيت مبتدئاً، لم أَتجاوز تلك المرحلة، ولم أَشأْ تجاوزها، كنتُ أَفهم أَنِّي لن أَكون يوماً محترفاً في الموسيقا، أَفهم ذلك، لكنَّ الوقت في السِّجن طويييييييل، طوييييييل، ويتَّسع لكلِّ الأَشياء.

ما الَّذي ستضيفه جثَّة ياسمين إلى مئتين وخمسين جثَّة تحوَّلت إلى قطع، إلى أَشلاء محروقة؟

منحوه شرف دفنها، لا لأَنَّهم أَشفقوا عليه، أَو عليها، بل لأَنَّهم كانوا متعبين من نقل الجثث طوال تلك اللَّيلة خلف السُّور، الجثث الَّتي دفنتها جرَّافة في المحجر، في قبر جماعيٍّ واحد، فيما بعدُ، بعد دخول وحدة "الغدناع" مع وحدة الشُّرطة العسكريَّة إلى القرية.

أَتساءل أَحياناً إن كان القبر الجماعيُّ أَكثر أُنساً من القبر المفرد، يفيق الميِّتون بعد إغلاق القبر عليهم، فلا يرون سوى الظُّلمة، يجلسون ويتسامرون بانتظار يوم القيامة.

ماذا لو كفَّ البشر عن دفن الجثث في قبور مفردة؟ أَليس ذلك أَكثر إنسانيَّة للموتى؟ أَلا يغيِّر ذلك من إحساسنا نحن الأَحياء بوحشة الموت؟ والوحدة خلاله، في قبر معزول عن الكون، محكم الإغلاق؟ نحفر لكلِّ ميت مترين من الأَرض، هي وطنه، نضع خطوطاً، نحدِّد لكلٍّ منهم حدوده كي لا يتشاجروا، ويتنازعوا، وتقوم معارك في المستقبل بينهم، فيعيدون قتل بعضهم البعض من أَجل محاصصات الأَوطان- القبور.

- أُريد دفنها في البيت...قال، كان ذلك كلُّه قبل أَن يقطعوا لسانه، قال ليوشع بالعبريَّة، ويوشع ضحك.
- من سمح لك أَن تنجِّس لغة الربِّ المقدَّسة بلسانك؟ قلها بالعربيَّة فأَنا أَعرف بعض العربيَّة.
- أُريد دفنها في بيتها، قال بالعربيَّة.
- سأَسمح لك بدفنها في فناء البيت، أَترى كم أَنا إنسانيٌّ معك؟

حملها على ذراعيه والدَّم يقطر من رأسها، دمها امتدَّ من السَّاحة حتَّى باب البيت المقابل للمسجد، تذكَّرت وأَنا أَقرأُ ما كتبه عن دمها قصَّة كانت أُمِّي ترويها لي عن عقلة الإصبع الَّذي يترك على الطَّريق في الغابة نثار الخبز كي يهتدي إلى طريق العودة، ليعود هو وأُخوته إلى البيت، لكنَّه وجد الطُّيور قد أَكلت تلك الفتات فتاهوا، أَضاعوا الطَّريق.

أَنا أَيضاً كدتُ أَن أَتوه في البداية حين لم أَجد آثار دمها، ربَّما مسحوها قلتُ لنفسي، ربَّما غسلوا الطَّريق بالماء، لكنِّي مع ذلك عدتُ لأَستدلَّ على الطَّريق من الرَّائحة، الرّائحة هي الَّتي كانت دليلي، فالزَّمن عادة يعجز عن محو روائح قتل الموتى.

حفر لها قبراً يليق بها، قبراً واسعاً يتَّسع لعشرين قتيلاً وأَكثر، دفنها فيه، صلَّى عليها ودفنها فيه، أَعادوه إلى الشَّجرة، أَعادوا ربطه إليها، وقطعوا لسانه ورموه للكلاب.

حين أَطلقت وحدة "الغدناع" سراحه ذهب إلى القبر، وظلَّ جالساً هناك.
طردوه فعاد...
ضربوه كثيراً، هدَّدوه بالموت، لكنَّه كان في كلِّ مرَّة يعود ليجلس أَمام القبر غير آبه بتهديداتهم.
كان ذلك بعد إسدال السِّتار على المجزرة.
ثلاثة أَعوام وهو جالس أَمام القبر يبكي...
ثلاثة أَعوام وهو يرفض الرَّحيل.
خالي هو آخر من تبقَّى من أَهل دير ياسين فيها، رفض الخروج، رفض الهجرة، ظلَّ يتعبَّد أَمام قبر ياسمين.
صار قبرها مزاراً، بل في البداية كان هو بذاته المزار، خالي، كانوا يأتون لرؤيته بعد أَن كتبت قصَّته حنَّا نوسين، ونشرتها الصُّحف، رغم اعتراض شراغا، وغضبه، واتِّهامه لها بأَنَّها تقلب الحقائق، وتحوِّل المهزوم إلى بطل...
قال لها:

- نحن كنَّا الأَبطال فلماذا تقلبين الحقائق؟

قالت له:

- ليس في اقتناص الذِّئب للشَّاة أَيَّة بطولة.

تفتَّقت يومذاك ذهنيَّته عن فكرة جهنَّميَّة...فجأَة بدأَت الدَّولة تكتب عن قبر الأُمِّ المقدَّسة في دير ياسين، وتشجِّع النَّاس على زيارته، سيَّجوه بسياج من قضبان معدنيَّة في البداية، ثمَّ عادوا وبنوا حوله صومعة، وسمَّوه قبر القدِّيسة إيدين*، وكتبوا على لوحة حجريَّة بالعبريَّة: هنا ترقد أُمُّنا المقدَّسة إيدين ابنة يهودا ابن يعقوب.
كان خالي أَوَّل نزلاء مشفى كفار شاؤول للأَمراض العصبيَّة، المشفى الَّذي أُقيم في بيوت دير ياسين، عام 1951م، وكانت حنَّا نوسين ثاني نزلائه.

---

*إيدين: اسم عبريٌّ يطلق على الذُّكور والإناث، ويعني مكان السَّعادة والفرحة والبهجة.

-5-

أُمِّي ماتت....

قال درور* في إحدى رسائله.

كنتُ قد التحقتُ بدورة لتعليم اللُّغة العبريَّة كي أَفهم الطَّلاسم الَّتي كنتُ أَراها في تلك الرَّسائل.

لجأتُ في البداية إلى شخص زعم أَنَّه يتقن العبريَّة، طلبتُ منه أَن يترجم لي بعض ما جاء فيها، فأَخبرني وهو يقلِّبها أَنَّها رسائل حبٍّ من يهوديَّة إلى مسلم، وراح يهذر بأَشياء لم أَقتنع بها، ما دفعني إلى البحث عن معلِّم للعبريَّة، ترجم لي بعضها، ثمَّ عرض عليَّ أَن يعلِّمني العبريَّة فوافقتُ.

لم يكن الأَمر سهلاً كما تخيَّلت في البداية، وكان عليَّ أَن أُكثر من استخدام المرآة كي أَرى الحروف كما يشرحها لي.

أُمِّي ماتت، قال درور في إحدى رسائله الَّتي أَرسل بها إلى خالي.

فهمتُ لعبة الرَّسائل تلك من مذكِّرات خالي، كانوا يرسلون رسائلهم إلى لندن، إلى عنوان في لندن تقطن فيه سيرينا شقيقة حنَّا، وهي تعيد تغليف الرَّسائل، وإرسالها إلى عمَّان، إلى كسَّارة رضوان.

درور كان يبحث عن أَبيه، وكان يشكُّ بأَنَّ خالي قد يكون بطريقة ما أَباه، وكان ذلك أَكثر ما يخيفه، لكنَّ خالي أَنكر الأَمر في إحدى رسائله لدرور، وأَكَّد له أَنَّه لم يمسس حنَّا نوسين قطُّ، وأَنَّ علاقته بها كانت علاقة شفقة فقط، كانت تشفق عليه، وتحضر له الطَّعام بين الحين والآخر حين كان معتكفاً أَمام قبر ياسمين، وأَنَّه ما عاد بوسعه أَن يتذوَّق امرأَة بعد ياسمين.

***حنَّا نوسين حين أَنجبت طفلها سمَّته درور وتعني عصفور الدُّوريِّ إشارة إلى الحريَّة (بالعبريَّة).**

ياسمين أَغلقت الباب بالمفتاح وخرجت، ولم تعد.

ياسمين ذهبت، مضت في موتها، ربَّما علَّقت مفتاح قلبه على جدار القبر، ربَّما هي أَيضاً تمنِّي نفسها ذات يوم قيامة أَن تعود لتلتقيه....وتفتح قلبه بذلك المفتاح.

هل كلُّ ذلك هو خالي أَم يهيَّأُ لي؟ هل خلطتُ الأَشياء؟ هل تهتُ؟ هل كان عليَّ أَن أُدقِّق أَكثر فيما قاله خالي وما قلته أَنا في يـــــس؟....ربَّما....من يدري؟

لم أَعد قادراً على أَن أُميِّز بين الأَشياء، الورم في رأسي كان يكبر دون أَن أَدري، ويبتلع ما تبقَّى من قدرة الذَّاكرة، والحواسِّ الأُخرى.

أَصبحتُ أَسمع أَصواتاً وأُصدِّقها، كانت تأمرني بفعل أَشياء، وتنهاني عن فعل أَشياء، وتسأَلني بين الحين والآخر: هل هي مصادفة أَنِّي أَرى الأَشياء على تلك الشَّاكلة؟

أَعود إلى القراءة من جديد، أَصبح الأَمر أَكثر صعوبة من قبل، صارت الكلمات تركض أَمامي وأَنا أَركض بعينيَّ خلفها، وفجأَة انقلبت رأساً على عقب، ولم تعد ثابتة كما كانت من قبل.

نهرو الَّذي قاطعني لأَشهر بعد أَن هجرتُ الحزب وقاطعت اجتماعاتي فيه، ونشاطاته، عاد ليشفق عليَّ، ويزورني.

- أَنت تجني على نفسك.
- لماذا لا تكون نفسي هي الَّتي تجني عليَّ؟ أُجيب.
- أَنتَ في نهاية المطاف تقرِّر ما تريده، وما لا تريده.
- منذ متى أَصبحتُ أُقرِّر ما أُريده وما لا أُريده؟
- عليك الذَّهاب إلى الطَّبيب.
- سيخبرني أَنَّ أَجلي على وشك أَن ينتهي، ربَّما يقول لي إنَّ ما تبقَّى لي في الحياة يومان أَو ثلاثة، فيضيع ذلك الوقت في التفجِّع على ذاتي، والحزن عليها، وانتظار الموت، نحن أَقوى حين لا يخبرنا الطَّبيب بموعد موتنا.
- لكنَّك تدفن مثل النَّعامة رأسك في التُّراب، ما أَدراك أَنَّه لن يعالجك؟

- لأَنَّه لم يعالجني من قبل، حين كان المرض أَسهل، استسلم وتركني كي أَموت.
- الطبُّ في كلِّ يوم يتطوَّر، لماذا تستسلم؟
- هل تراني مستسلماً؟
- نعم.
- عليك أَن تقرأَني بطريقة أُخرى...إذن، ها أَنا أُقاوم حتَّى آخر نَفَس في صدري.
- أَنت أَكثر رجل مستسلم لواقعه على هذه الأَرض، أَنتَ كما أَراك ضحيَّة للمجزرة أَكثر من أُولئك الَّذين عاشوها، هل تفهم ذلك؟
- ليس على طريقتك، إنَّما على طريقتي.
- القويُّ لا يمكن أَن يكون ضحيَّة، وإن كان في لحظة ما كذلك، ينقلب فوراً، يقاتل، ينتزع حقَّه، أَرَأَيتَ ما فعله رفاقنا السُّوفييت يوم غزتهم النازيَّة واحتلَّت أَرضهم؟ قاتلوا، لم يتقمَّصوا دور الضَّحيَّة، هل سمعتَ عن إنجليزيٍّ ضحيَّة؟ أَو فرنسيٍّ ضحيَّة؟....
- لكنَّا في حقيقة الأَمر ضحايا...أَنا، وأَنت، كلُّ أُولئك الَّذين يعيشون حولنا ضحايا، نحن لسنا ضحايا العدوِّ الصَّهيونيِّ فقط، ضحايا الأَمريكان، والإنجليز، والفرنسيِّين الَّذين تتحدَّث عنهم، وضحايا رفاقك السُّوفييت.
- الضحيَّة بوصفها ضحيَّة لا يمكن لها أَن تنتصر...ذلك هو رأيي...قال بغضب، ربَّما لم يعجبه كلامي عن السُّوفييت.

يومذاك خرج بنظريَّة تُسمَّى "متلازمة دير ياسين" وأَخبرني أَنَّه سيبذل في الأَمر مجهوداً مضاعفاً كي يثبت صحَّتها.

- ماذا تعني المتلازمة؟
- أَعراض تظهر على بشر بعينهم، لسبب ما، أَعراض نفسيَّة على الأَغلب.

حنَّا نوسين كانت أَيضاً ضحيَّة دير ياسين.

قبضت الهاغاناه على الصُّور الَّتي أَرسلتها خلسة في البريد للصَّحيفة الَّتي تعمل فيها، كانت قد سلَّمت شراغا أَربعة أَفلام وأَخفت أَربعة....

لم تكن تعلم أَنَّها مراقبة، وأَنَّ البريد الصَّادر والوارد إلى القدس كلَّه مراقب، لذا وقعت في قبضة الهاغاناه.

جاءها شراغا يصرخ كالمجنون.

- أَنت تخونين "إسرائيل"، ولا تفهمين ما سبَّبتِه لي من إحراج، كان يجب أَلاَّ أَصطحبك معي.
- أَنا لا أَفهم إصراركم على إخفاء الأَمر.
- بالعكس، نحن لم نخفه، نشرناه في كلِّ المدن والقرى، كلُّ العرب الآن يعرفون ما جرى في دير ياسين، ويرتعبون من مجرَّد ذكر المقاتل العبريِّ، ما داموا يؤمنون بالله فعلينا أَن نأتيهم من هذا الباب، نقنعهم أَنَّ الله معنا، وليس معهم....ذلك ما كنَّا نفعله، ما دام الأَمر صراعاً على الله فنحن أَحقُّ به منهم، ولكنَّ ذلك كلَّه لا يعني أَن ننشره في صحف أُوروبَّا، نحن هنا من يمتلك الحقيقة فقط، ولا تنسي أَنَّ إيتسل وليحي هم من نفَّذوا العمليَّة، ونحن تبرَّأنا منها.
- كنتم جزءاً رئيسيَّاً منها، ولولاكم ما كانوا لينجحوا، كادوا أَن يفشلوا في بداية الأَمر، وذلك على كلٍّ لا يعني أَنَّكم لم تمارسوا البشاعة ذاتها في مناطق أُخرى، تقسيم أَدوار بين اليمين واليسار.
- لو فشلنا لكنتِ الآن أَنتِ الضحيَّة...لما كنتِ الآن أَمامي، عليك أَن تفهمي ذلك...حنَّا، بتلك الطَّريقة فقط كان يمكن "لإسرائيل" أَن ترى الحياة.
- كنتُ أَتمنَّى لو كنتُ الضحيَّة بالفعل، ولم ترَ "إسرائيل" الحياة.
- على كلِّ حال ما كان يمكن أَن نسمح بالفشل، أَين أَصل الصُّور؟

- أَتلفتها...
- أَنت وأَنا نعرف أَنَّك تكذبين.
- شراغا، أَنت مخلص للهاغاناه أَكثر من إخلاصك لحبِّي.
- لماذا على حبِّي لك أَن يتعارض مع "إسرائيل"؟
- لأَنَّه يتعارض، هكذا، يتعارض، لا أَدري لماذا لكنَّه يتعارض، أَتعرف؟ أُريد أَن أَعود إلى لندن.
- ما المانع؟ بوسعك العودة طبعاً بعد إعطائي أَصل الصُّور.
- لن أُسلِّمها لأَحد.
- أَنتِ تحكمين على نفسكِ بالموت، المسأَلة أَكبر منِّي ومنك.

صار يشعر أَنَّها امرأَة أُخرى غير تلك الَّتي عشقها ذات يوم، وشعر بها مخلصة لفكرة "إسرائيل".

كتب تقريره في اليوم التَّالي، وصدرت الأَوامر بمراقبتها على مدار السَّاعة.

بذل مجهوداً هائلاً معها كي تسلِّمه أَصل الصُّور لكنَّها بقيت على إصرارها.

حاولت الهرب مرَّتين عبر البحر، ففشلت، أَعادوها من الميناء.

اعتزلت الحياة، سكنت في جفعات شاؤول، وظلَّت ملازمة لخالي، تزوره كلَّ يوم، وشراغا يتَّهمها بأَنَّها تقيم علاقة جنسيَّة معه.

العلاقة بينها وبين شراغا انتهت، أَصبحت متوتِّرة، وصارت لا تُطيق رؤيته.

حين حاولت فضح الأَمر ذات يوم أَمام مجموعة من الصَّحفيِّين أَلقوا القبض عليها وهي تعدُّ لذلك اللِّقاء، اتَّهموها بالجنون، وأُودعت مشفى كفار شاؤول النَّفسي، وفي ملفِّها الطبيِّ كتبوا أَنَّ لديها عوارض ذهان وجنون وارتياب، وأَنَّها لا تدرك مرضها.

كانت تفرُّ من عنبرها، وحين يبحثون عنها يجدونها في عنبر خالي، جالسة إلى جانبه، صامتة مثله، تحدِّق إلى الجدار المقابل، فيعيدونها إلى غرفتها.

وضعت مولوداً سمَّته درور*، ورفضت رفضاً قاطعاً أَن تعلن عن اسم أَبيه، رغم كلِّ الضُّغوطات الَّتي مارسها الأَطبَّاء عليها، والحكومة.
اتَّهموا خالي به فتمَّ ترحيله من المشفى، دوريَّة جنود اقتادته إلى الحدود الفاصلة بين الجيشين، أَطلقوا النَّار بين قدميه فراح يركض إلى الجهة الأُخرى.
كانت تكتب رسائلها تارة لخالي، وتارة للجنين في بطنها، درور، ومنهما تستمدُّ قوَّة البقاء، وحين ولدته أَخذوه منها إلى حيث لا تدري، ما جعلها تصاب بحالة من الكآبة المزمنة، وتدمن كتابة الرَّسائل أَكثر.
كانت كثيرة الهروب من المشفى، وكانوا يستنفرون رجال الأَمن في كلِّ مرَّة تهرب فيها، يقلبون الأَرض عليها حتَّى يجدوها، ويعيدوها إلى المشفى من جديد.
حين زارتها شقيقتها سيرينا المقيمة في لندن ذات يوم، قدَّمت التماساً للحكومة كي يسمحوا لها باصطحابها معها إلى لندن، ورعايتها، لكنَّ الحكومة رفضت الطَّلب أَكثر من مرَّة بحجَّة أَنَّها مواطنة "إسرائيليَّة" مريضة، وأَنَّ الدَّولة مسؤولة عنها.
أَيَّامذاك، أَثناء زيارات شقيقتها لها، أَخبرتها حنَّا نوسين أَنَّ روحها متعلِّقة برجل عربيٍّ هو من تبقَّى من المذبحة، قالت لها إنَّها لا تتوقَّف عن الحلم به، تراه كلَّ ليلة تقريباً في منامها، يقضُّ مضجعها، ترى لسانه المقطوع الَّذي رموا به للكلاب فأَكلته، ورجتها أَن تبحث لها عنه، وأَن تجده، وتنقل لها أَخباره، فذلك الأَمر قد يجعل روحها تهدأُ لو قليلاً.....
كان الأَمر أَشبه بالبحث عن إبرة في قاع محيط.
حنَّا أَخبرت شقيقتها أَنَّ الرَّجل أُبعد إلى الأُردنِّ عبر الحدود، والشَّقيقة بحثت أَوَّلاً في الضفَّة، وأَدركت أَنَّ أَهالي دير ياسين تفرَّقوا في العالم، جاءت إلى مخيَّمات عمَّان، وراحت تسأَل المهجَّرين من دير ياسين عن خالي، حتَّى وصلت إليه.

***بعض وقائع قصَّة حنَّا نوسين، وابنها مجهول النَّسب درور الَّذي ولدته في مشفى كفار شاؤول للصحَّة النَّفسيَّة، حقيقيَّة وتستند إلى الفيلم الوثائقي "ولد في دير ياسين" للمخرجة اليهوديَّة نيتع شوشاني.**

- حنَّا تقرئك السَّلام وتقول لك إنَّها لا تنام.

لم يكن ثمَّة طريقة بينهما ليتفاهما، لا كانت هي تتقن العبريَّة، أَو العربيَّة، ولا هو كان يتقن الإنجليزيَّة، لذا اضطرَّا إلى اللُّجوء إلى من يترجم لهما، هي تسأَله وهو يجيبها بالكتابة بالعربيَّة على الورق.

- حنَّا حسَّاسة منذ طفولتها.
- ما كان عليها أَن تقحم نفسها في هذا المكان..."إسرائيل" هي الجحيم بعينه.
- حسناً، هل بوسعك أَن تكتب لها رسالة؟ سيجعلها ذلك أَفضل حالاً.
- لا أَعرف ما الَّذي سأَقوله بالضَّبط.
- قل ما تريد قوله فقط، لا أَكثر، قل ما تشعر به.
- هل أُواسيها حين أَقول لها إنِّي بخير، وإنِّي نسيت ما جرى هناك؟ ونسيت ياسمين؟ والمذبحة؟ وطفلي؟ ولساني الَّذي أَطعموه للكلاب؟ هل يمكن أَن تكون بحال أَفضل إن أَخبرتها بذلك؟ هل ستتحسَّن حالتها النَّفسيَّة؟
- أَنت لا تعرف كم هي متعلِّقة بك.
- حسناً، سأَكتب، ولكنَّ ما سأَكتبه لها، كنتُ قد قلته لها شخصيَّاً، أَكثر من مرَّة، كتبته لها على ورق حين كانت تزورني، وأَنا في دير ياسين.
- أُكتب ما تريد، ما شئتَ، المهمُّ أَن تكتب.

أَعطته عنوانها في لندن، وأَخبرته أَنَّ بوسعهما أَن يتراسلا من خلال ذلك العنوان، وأَنَّها ستضع الرِّسالة داخل ظرف آخر فتبدو كأَنَّها مرسلة من لندن، ورجته أَن يكتب لها بالعبريَّة كي لا تثير رسائله الشُّبهة في "إسرائيل".

الطَّبيب حين علم بأَمر تلك الرَّسائل لم يعارضها، بل راح يشجِّعها على الكتابة، وأَخبرهم في المشفى أَنَّ ذلك قد يساعدها على الهدوء، والكفِّ عن الهرب من المشفى، ما كان يشكِّل لهم مسؤوليَّة أَمام الدَّولة، وإحراجاً.

أُمِّي ماتت....قال درور في إحدى رسائله لخالي، ماتت دون أَن تفصح عن السرِّ الكبير الَّذي يجعلني دائم الأَرق.

نشأتُ في بيت لليتامى، بلا أُمٍّ ولا أَب.

كانت رسائلها تحرجني أَمام زملائي حين تكتب العنوان على ظرف الرِّسالة: مشفى كفار شاؤول للصحَّة النفسيَّة.

كنتُ أَهبُّ من فراشي سريعاً، أَلتصق بالمعلِّم الَّذي يبدأُ بتوزيع الرَّسائل، بانتظار رسائلها، خوفاً من أَن يقرأَ أَحد العنوان، وما إن يسلِّمني المعلِّم الرِّسالة حتَّى أَختلي بنفسي في الحمَّام، أُخرج الرِّسالة، وأَحرق المظروف، ثمَّ أَخرج.

رجوتها أَكثر من مرَّة أَلاَّ تكتب العنوان لكنَّها كانت مصرَّة دائماً على كتابته.

في الحقيقة كنتُ أَتنفَّس الصُّعداء حين يوزِّع المعلِّم الرَّسائل ولا يكون ثمَّة رسالة لي بينها.

هل تعتقد أَنِّي ظلمتُ أُمِّي؟

أَتعرف مدى ظلمها لي؟ أَتدركه؟ أَتفهمه؟ أَتعرف معنى أَن تكون مجهول الأَب، وأُمُّك تصرُّ على أَلاَّ تخبرك بنسبك؟ في الحقيقة لشدَّة تعلُّقها بك ظننتُ أَنَّني عربيٌّ، جئت من صلبك.

هل كان ثمَّة علاقة جمعت بينكما ذات يوم؟ أَعني علاقة جنسيَّة قد أَكون أَنا ثمرتها؟

لا أَجاب خالي في إحدى رسائله.....بوسعك البحث هناك عن نسبك، داخل مشفى كفار شاؤول للصحَّة النفسيَّة، أَو داخل "إسرائيل" فكلُّكم هناك داخل مصحٍّ نفسيٍّ كبير، اسمه فلسطين.

درور أَصبح مجنَّداً في جيش الدِّفاع، الدَّولة ربَّته، نشأَ في كنفها، أَكل من خيرها، لذلك كان عليه أَن يُثبت ولاءه لها، وينضمَّ إلى جيشها كي يُدافع عن حدودها، وأَمنها، ووجودها.

لو قُدِّر لي أَن أَكون مقاتلاً، لو أَنَّهم قبلوا بي يوم ذهبتُ للتطوُّع في الكرامة، ربَّما لكنَّا تواجهنا، درور وأَنا، في اشتباك ما، وربَّما كنتُ قتلته، أَو قتلني، ولو قُدِّر للزَّمن أَن يعود إلى الخلف، وكان درور في دير ياسين، لما كان قد تردَّد لحظة في إطلاق النَّار على رأسي، أَو رميي عبر السُّور إلى الوادي لأَموت هناك.

كنتُ أَفهم هذا وأَعيه تماماً، فنحن على كلِّ حال نقيضَان مهما بدا الأَمر غير ذلك، والدَّلالة على ذلك أَنَّهم يحتفلون بعيد استقلالهم يوم نكبتنا...

هم يفرحون، ونحن نجترُّ أَحزاننا...أَيُّ تناقض قد يكون بين طرفين أَعمق من ذلك التَّناقض؟

لو قُدِّر لي أَن أُواجهه لما تردَّدتُ لحظة في إطلاق النَّار على رأسه، لأَنَّني أَفهم تماماً أَنَّني لو تردَّدت لحظة في ذلك، فلن يتردَّد هو في ذلك الأَمر.

لا...لن أُطلق النَّار على رأسه لأَنِّي على الأَغلب سأُخطئه، مثلما كنتُ أُخطئ الهدف في الكرامة، أَثناء التَّدريب، سأُلقي عليه قنبلة لأَضمن موته.

لماذا عليَّ أَن أَكون أَنا الضحيَّة في كلِّ سيناريو؟

أَذكر أَنَّني أَعدتُ ترتيب الأُمور في السِّجن.

كنتُ قد رتَّبتُ مع الرِّفاق تقديم مسرحيَّة في ذكرى المجزرة، في التَّاسع من نيسان، وخطر الأَمر ببالي، لمع هكذا، دون سابق إنذار، ماذا لو قلبتُ السِّيناريو؟ ماذا لو أَطلقتُ لمخيِّلتي العنان؟ وأَعدتُ ترتيب المجزرة بصورة أُخرى؟

الكارثة الحقيقيَّة كانت حين أَحضروا إلى السِّجن ممثِّلين حقيقيِّين، لا هواة من المساجين، وكان عليَّ أَن أُدير المسرحيَّة، أَن أَشرح تفاصيل الأَمر لهم، أَن أُعدَّ ساحة تتَّسع للقتلى، وبئراً، وناراً لأَجسادهم، ورصاصاً ومتفجِّرات تكفي لتنفيذ المذبحة.

في لحظة ما خطر الأَمر ببالي: ماذا لو قلبتُ السِّيناريو؟

- لا يمكن أَن أَكون أَنا القاتل في دير ياسين....قال الممثِّل الأَوَّل.
- أَلم تقل إنَّ اليهود كانوا يلبسون سروايل خضراء؟ سأَل ممثِّل ثان.
- بلى...
- علينا إذن أَن نلبسها كي نكون مقنعين، ونتحدَّث العربيَّة بلكنة الخواجات.
- لا...كنتُ أُريد عكس المسأَلة.
- لا يمكن عكس المسأَلة يا رفيق...
- لماذا لا يمكن عكسها؟
- من القاتل؟ ومن المقتول؟ من الضحيَّة؟ هل تعتقد أَنَّ الضحيَّة يمكن أَن تسامحنا؟ هذا تاريخ ولا يحقُّ لنا أَن نعبث به.
- أَعتقد أَنَّها يمكن أَن تهدأَ قليلاً في القبر، وتنام.
- تريد خداع الضحيَّة؟
- أَظنُّ أَنَّنا جميعاً مخدوعون، وضحايا.
- حسناً، وفِّر فلسفتك لنفسك ودعنا نعيد تمثيل الأَحداث كما كانت.
- قدِّموها على طريقتكم، أَنا لم أَعد معنيَّاً بالأَمر.

في السِّجن قرأتُ مئات الكتب، وحضرتُ مئات الاجتماعات، والدُّروس، تعلَّمتُ بعض الموسيقا، والطِّباعة، والخياطة، تغيَّرتُ كثيراً، أَربع سنوات وقتٌ طويل بوسع المرء أَن ينقلب خلالها رأساً على عقب.

كان سجن المحطَّة محطَّة في حياتي جعلتني أَكثر فهماً لهذا العالم، واستيعاباً له.

كنتُ أَراه، هذا العالم، بطريقة ما، وأَصبحتُ أَراه بطريقة أُخرى.

أَن أَرى العالم كما كنتُ أَراه، يعني ذلك أَنَّني كنتُ أَهضم صور الأَشياء في دماغي بطريقة مختلفة تماماً، اللُّغة الكهربائيَّة كما قال نهرو فيما بعد لغة مختلفة، إشارات مختلفة، والإشارات هنا هي الَّتي تؤسِّس للمعرفة، والمعرفة الَّتي انبنت داخل الدِّماغ أَصبحت قناعات، والقناعات لا يمكن زحزحتها بسهولة، وأَنا كنتُ عنيداً، وكان من

الطَّبيعيِّ جداً أَن أَكون عنيداً، وكنتُ مصرَّاً دائماً على أَنَّ الحقائق في هذا الكون، الحقائق الَّتي ندركها ما هي إلاَّ خداع بصريٌّ لا يُدرك.

لماذا لا أَكون أَنا المصيب؟ لماذا لا تكون رؤيتي أَكثر واقعيَّة من رؤية الآخرين؟

راح نهرو يشرح لي نظريَّة المثل لأَفلاطون، ويبيِّن لي أَنَّ الأَشياء الَّتي نراها ونشعر بها هي مجرَّد صور للأَشياء الموجودة في عالم المثل، تقترب من الأَصل، وتبتعد بذلك القدر الَّذي نضفيه عليها نحن، وأَنَّ الحقيقة لا يمكن أَن تتمثَّل على هذه الأَرض، لأَنَّ شروط الأَرض مختلفة، ولا تحتمل الحقائق، حسب وجهة نظر أَفلاطون، وأَنَّه كشيوعيٍّ لا يمكن أَن يؤمن بالمثل، بل يؤمن بأَنَّ الأَشياء هي ذاتها وحسب.

هل يوجد فينا ثمَّة مثال؟ كنتُ أَسأَل نفسي متجاهلاً فلسفاته الأُخرى، ووجهة نظره في هذا العالم.

كيف يراني؟ وكيف أَراه؟

هل أَنا بحاجة إلى مرآة بالفعل كي أَراه كما هو؟ على حقيقته؟ أَم أَنَّ بوسعي أَن أَعرف من هو بمجرَّد إلقاء نظرة عليه؟

ما الَّذي يمكن أَن يمحو عار التَّاريخ؟ عار دير ياسين، والدَّوايمة، والطَّنطورة، واللدِّ، وغيرها من المجازر الَّتي ليس لها بداية ولا نهاية؟

كيف يتصالح الدَّم مع الرَّصاص وينسى؟ كيف تتصالح دماء أَبي مع خمس رصاصات اخترقت أَنحاء جسده، مع النَّار الَّتي أَشعلوها في جثَّته؟ مع أَشلائه وهي تهرُّ كلَّما حاولوا حمله؟ أَليس علينا أَن نبقي كتاب دير ياسين مفتوحاً لنبدأَ دائماً من هناك؟

فهمتُ أَنَّه بعد أَن أَنهى خدمته في الجيش التحق بإحدى المؤسَّسات المناهضة للحرب، جرَّبتُ أَن أَكتب له، كتبت العنوان على طريقته، إلى لندن، فعادت الرِّسالة ممهورة بالختم ذاته: تعاد إلى المرسل بسبب موت سيرينا نوسين، المُرسل إليها.

-8-

"ينتابني شعور غامض بالحنين، والغربة، والكآبة، خصوصاً عند المساء، أَوَّل اللَّيل، حين أُحدِّق إلى العالم من النَّافذة"...كتبت حنَّا نوسين.

"في العتمة أَراهم ينهضون من الموت، يعودون إلى بيوتهم، يتفقَّدونها، ينتشرون في السَّاحة، أَسمع أَصواتهم في رأسي، وأَتعجَّب حين يضحكون، كيف للميت أَن يضحك؟ هل يضحكون منَّا؟ أَتساءل، ولا أَجد جواباً"

"أَنا أَشعر هنا بالاختناق" تقول.

أَتعرف ما المدهش في الأَمر؟ ثمَّة علاج يُسمَّى "علاجاً بالقتل" هنا في مشفى كفار شاؤول، حين يخرج الضَّحايا في اللَّيل ويتجوَّلون في القرية، أَمام أَعين الجميع، يُخرجون لهم بعض الجنود الَّذين كانوا جنوداً ذات يوم، وأَصبحوا نزلاء في المشفى، يسلِّحونهم ويخرجونهم إلى القرية، والفرق أَنَّ الرَّصاص الَّذي يعطونه لهم فارغ، يخرجون في اللَّيل ويعيدون قتل الضَّحايا من جديد....

يقول د. ميلر إنَّ تلك أَفضل طريقة لعلاجهم.

شجرة الكينا ما زالت في مكانها، وما زلتُ أَراك مصلوباً عليها، رأَيتهم وهم يقتلونك هناك أَكثر من مئة مرَّة، ومع ذلك، فأَنت لا تعرف ما هو الشَّيء الوحيد الَّذي يؤنسني في هذه العزلة؟ إنَّها رائحتك.

كيف تصبح المقبرة ونيساً للبشر؟ أَتفهم هذه المفارقة؟ أَشمُّ رائحتك هناك....لا أَفهم لماذا أَنا متعلِّقة بك إلى هذه الدَّرجة، لا أَفهم ما الَّذي تعنيه لي، لكنَّني أَفهم شيئاً واحداً فقط، أَنَّني أَشعر بالأَمان وأَنت معي.

"الرَّائحة، إحساسنا الهائل بالرَّائحة تعني بالنِّسبة لي شيئاً واحداً فقط: أَنَّنا أَصبحنا مجرَّد حيوانات مفترسة، أَتخيَّل الذِّئب وهو يرفع رأسه إلى الأَعلى، ويتشمَّم الهواء، هل كنتُ ذئبة أَنا أَيضاً حين رضيت دخول دير ياسين؟".

" هو حبٌّ وُلد ميتاً، وبوسعي أَن أَفهم ذلك، أَفهم أَنَّ دير ياسين هوَّة هائلة تفصل بيني وبينك، أَفهم أَنَّني لا أَستطيع أَن أُشغل مكان ياسمين، لذلك يحقُّ لي أَن أُعلن أَمامك أَنِّي أَغار منها".

" زارتني سيرينا بالأَمس، جاءت من لندن، أَحضرت لي هدايا كثيرة منها فستان لونه أَحمر، وأَنا أَكره الأَحمر، قلتُ لك ذلك من قبلُ، قلتُ لك كيف أَصبح الأَحمر يثير فيَّ الغثيان، والرُّعب، أَتعرف؟ أَنا لا أَفهم علاقة البشر بالأَلوان، يهيَّأُ لي أَنَّ الأَلوان تشبه الموسيقا، سلَّم الموسيقا، كلُّ نغمة منها تضغط على جزء بعينه من الدِّماغ فتستثير عاطفة ما....

ذعرتُ حين ارتديته بعد خروجها، نظرتُ إلى المرآة، صرختُ فجأَة، ورحتُ أُحاول تمزيقه وهو على جسدي، شعرتُ بالهلع، جسدي كان يرتجف، ويداي انفصلتا عنِّي، شُلَّتا، صرختُ، فحقنوني بإبرة مهدِّئ.

كنتُ قد أَخبرتها –أَعني سيرينا– أَن تذهب إلى أَرشيف الدَّولة علَّها تجدهم قد أَفرجوا عن ملفَّات دير ياسين، ووثائق المذبحة، كنتُ أُريد استعادة ما وثَّقتُه، ما صوَّرتُه، ما دفعتُ حياتي ثمناً له، فالدُّول (المتحضَّرة) عادة ما تفرج عن ملفَّاتها السريَّة بعد مرور ثلاثين عاماً عليها، حين تنتهي أَهميَّتها، كنتُ أَعدُّ الزَّمن بالسَّاعة حتَّى أَستعيد جزءاً من حياتي المنهوبة، والمخفيَّة، وأُسقط عن نفسي تهمة الجنون، وأُثبت أَنَّ "إسرائيل" هي المجنونة، أَتعرف ماذا قالوا لها هناك؟ ممنوع....وحين وكَّلتْ محامياً بالأَمر أَخبروه أَنَّ هذه الملفَّات ستبقى سريَّة لأَنَّها تضرُّ بعلاقة "إسرائيل" مع العالم.

متلازمة دير ياسين موجودة حتماً، حتَّى لو حاولنا القفز فوقها.
كان نهرو طرباً لاكتشافه.
تخرَّج أَخيراً من الجامعة، وأَصبح طبيباً يداوي الفقراء.
عمل عامين في مشفى المعشّر، في جبل الحسين، ثمَّ افتتح عيادته الخاصَّة في مخيَّم الزَّرقاء.
أَجرى دراسات على مئتين وخمسين عيّنة من اللاَّجئين الَّذين هاجروا من فلسطين، من قرى مختلفة، وخرج بنتيجة مفادها أَنَّ متلازمة دير ياسين شيء موجود لكنَّ أَحداً لا يلتفت إليه، ولا يعي وجوده.
أَعراض المتلازمة هلوسات، وتعرُّق، وقلق، وذكريات متقطِّعة، وشعور بالرَّغبة بمغادرة المكان، وبعض العيِّنات أَصابها شعور بالغثيان.
كان قد علَّق صور حنَّا نوسين الَّتي وجدتُها في صندوق خالي، وفهمتُ أَنَّها هرَّبت الأَصل له مع شقيقتها سيرينا يوم زارته، بعد أَن كتبتْ له تخبره أَنَّه الأَحقُّ بتلك الصُّور، كان قد علَّقها أَمام العيِّنات، ثمَّ بعد أَن يروها، يستعرضوها صورة صورة، يغطِّي العيون بعصابة سوداء بعد تقييد العيِّنة إلى المقعد، ويستعرض ما جرى هناك، لحظة لحظة كما كنتُ أَروي له الحكاية، كان يستثير الذِّكريات الَّتي تتحوَّل فجأَة إلى واقع، تنهض من الزَّمن، وتعود لتنشب مخالبها في قلوب النَّاجين، تستفزُّهم، تجعلهم يصرخون، ويبكون، وكأَنَّهم يعيشون المجزرة مرَّة أُخرى.
مع كلِّ مجزرة جديدة كانت دير ياسين تقوم من قبرها، بلباسها الأَبيض، وتسير بين القرى، والمدن، والمخيَّمات شبحاً يثير خلفه زوابع الغبار، مخضَّباً بالدِّماء، ينادي

على القرى، والمدن، والمخيَّمات، ينادي البشر كلّاً باسمه، كيف يمكن أَن يُقتل المقتول من جديد؟

شملت عيِّنات نهرو بعض أَولاد وأَحفاد النَّاجين، مثلي، وكانت النَّتيجة في كلِّ مرَّة تقود إلى الخلاصة ذاتها: متلازمة دير ياسين.

- لماذا لا نقول متلازمة المجازر؟
- لأَنَّ دير ياسين هي الأَصل، أَتعرف؟ كثير ممَّن غادروا قراهم من الفلاَّحين البسطاء، كانوا قد أُصيبوا بمرض دير ياسين، وكان العدوُّ يعرف تلك المعادلة، ويفهمها، لذا راح يشيع الخبر بين النَّاس عبر مكبِّرات الصَّوت كلَّما اقتحم مكاناً، وساهمت إذاعات العرب في تضخيم الأَمر، لم يكن يتردَّد لحظة في إعادة سيناريو المجزرة في أَيَّة قرية لم تُصب بالمرض...ورفض أَهلها الخروج....كانوا يريدون أَرضاً فارغة من البشر، وكان عليهم من أَجل ذلك اللُّجوء إلى كلِّ ما يمكن فعله.
- هل هذا يعني أَنَّ المتلازمة وراثيَّة؟
- ليس بالضَّبط، لا يوجد متلازمة وراثيَّة إلاَّ ضمن ما يورِّثه الآباء للأَبناء من قصص، وحكايات، وصور تتراكم في الذَّاكرة، واللاَّوعي، أَثناء الطُّفولة، وتتحوَّل إلى قناعات، خصوصاً حين يعيش الابن ظروفاً مشابهة لتلك الَّتي عاشها الأَبُ، أَو الأُمُّ، ويبقى مهدَّداً بنفس الطَّريقة، آنذاك سيقوده وعيه لا شعوريَّاً إلى تطبيق المواقف ذاتها كسيناريوهات محتملة على نفسه، وأَنا كنتُ أَستحثُّ هذا الأَمر خلال تجربتي فقط، كنتُ أُريد لهذه التصوُّرات، والخيالات أَن تخرج.
- يعني أَنَّنا ما زلنا نعيش الحالة الَّتي تقول إنَّنا مهدَّدون بمجزرة جديدة.
- يعني أَنَّ المجازر تعيش فينا، داخلنا، نجترُّها أَثناء النَّوم، وفي اللاَّوعي، الشرقيُّ عادة يمتلك القدرة على إخفاء هواجسه، وتخوُّفاته، أَكثر من الغربيِّ، لذلك تراه متماسكاً، لكنَّه في الحقيقة ليس كذلك، لماذا تظنُّ أَنَّ

كثيراً من النَّاجين من الحروب يكونون بحاجة إلى علاج نفسيٍّ ليعودوا سويِّين؟ إنَّـها مسأَلة صيانة تُجرى للاَّوعي كي يبقى الإنسان قادراً على التَّماسك.

نـهرو تغيَّر، ما عاد يلحُّ عليَّ بأَن أَعود عضواً في الحزب، علاقتي به أَصبحت علاقة شبه يوميَّة، يزورني أَو أَزوره، نلعب أَحياناً النَّرد في المقهى، يغضب، يقفل الطَّاولة بغضب حين أُصرُّ على أَنَّ الرَّقمين اللَّذين ظهرا بعد أَن رميتُ النَّرد "دو شيش" وهو يخبرني أَنَّـهما ليسا كذلك....

يتمسَّك كلٌّ منَّا برأيه، فيصرخ قائلاً:

- قلتُ لك أَلف مرَّة لا تخطف النَّردين فور سقوطهما لأَنَّني بحاجة إلى جيش لأُقنعك بأَنَّ ما تراه خاطئ.
- لماذا لا يكون ما تراه أَنت خاطئاً؟
- لأَنَّك مريض وتعرف ذلك.
- لماذا لا تكون أَنتَ مريضاً، ولا تعرف ذلك؟
- حسناً، لا أُريد اللَّعب، يقفل الطَّاولة بغضب ويطلب الحساب.

كنتُ قد بدأتُ بفلسفة الأَمر بطريقة عجيبة، أَعني طريقتي في رؤية الأَشياء:

إن كان ذلك الأَمر، المرض، مرضي، علَّة غائيَّة فعليَّ أَن أَبحث عن تلك الغاية.

هل هي صدفة فقط أَنِّي أَرى الأَشياء بشكل مقلوب؟

الفصل الخامس: الصُّورة

-1-

حين اقتنعتُ أَخيراً بإجراء الفحوصات تمهيداً لإجراء عمليَّة جراحيَّة في موسكو، مجَّاناً، كمنحة من الحزب، وجدتُ الطَّريق أَمامي مسدوداً.

أَقنعني نهرو، أَخبرني بأَنَّه سيخفي الحقيقة عنِّي، وبذلك سيصبح الأَمر بالنِّسبة لي سيَّان، ما لا تعرفه بالنِّسبة لك غير موجود، قال، وقال إنَّه لن يقوم بدور الطَّبيب الشُّجاع الَّذي يقف أَمام مريضه بهدوء ويخبره أَنَّ ما بقي له في هذه الحياة أَيَّام.

أَصبح الأَمر أَكثر إثارة للفضول.....

- **هل سأَموت؟**
- **كلُّنا سنموت.**
- **أَعني هل وصل بي المرض حدَّ الموت؟ كم يوماً بقي لي؟**
- **ما كان قد بقي لك قبل إجراء التَّحاليل، والصُّور.**
- **هل هذا يعني أَنَّك تؤمن بالقدر؟**
- **صحيح...لكنَّه إيمان مختلف عن الدَّارج.**
- **أَتعرف؟ بودِّي لو أَستأصل دماغي نفسه، ففيه تكمن المشكلة، أُريد استئصال دماغي أَيضاً مع الورم.**

أَرسل الصُّور والتَّحاليل والنَّتائج مع طبيب صديق له إلى موسكو، وبعد شهرين عاد صديقه بوجهة نظر الأَطبَّاء هناك:

ستشوِّه العمليَّة وعيه تماماً، كان يمكن أَن تُجرى له وهو طفل، فيبني وعياً سويَّاً إن نجحت، أَمَّا الآن فقد فات الأَمر، لقد شكَّل وجهة نظره حول العالم، والحياة، والأَشياء، ولا يمكن أَن يبدأَ بها من جديد، سيتوه، ويضيع، سيجد العالم مكاناً مختلفاً عن ذلك العالم الَّذي عاشه، وقد يودي به ذلك إلى اليأس والانتحار....هذا إن نجحت العمليَّة أَصلاً، واستطعنا استئصال الورم...قال الطَّبيب.

- والعمل؟ سأَل نـهرو صديقه الطَّبيب.
- أَحضرت له أَدوية توقف تمدُّد الورم في رأسه.

أَمرني وهو يناولني علبة الدَّواء أَن أَشرب منه حبَّة واحدة فقط كلَّ أَربع وعشرين ساعة، قبل النَّوم، وأَخبرني أَنَّ زيادة الجرعة قد تودي بي إلى الجنون، أَو الموت.

- هذا الدَّواء خطير...قال، وأَضاف: إيَّاك ثمَّ إيَّاك أَن تتناوله مع أَيِّ دواء آخر، أَو مشروب كحوليٍّ، أَو تنسى أَنَّك شربته وتعود لتشربه من جديد، أَو تخرج إلى الشَّارع، أَو تقود سيَّارة.
- إلى هذه الدَّرجة؟
- نعم...وستشعر ببعض الأَعراض حين تتناوله.
- مثل ماذا؟
- تأثير الدَّواء يشبه تأثير المخدِّرات.

الدَّواء كان بالفعل حالة من الهستيريا...

أَشرب حبَّة منه مساءً، قبل النَّوم، أَجلس على المقعد، وفجأَة أَجد الجدران تتباعد، تتحرَّك من مكانها، وتعود إلى الخلف، تصبح الغرفة الصَّغيرة أَشبه بملعب كرة قدم، واسعة لا أَكاد أَرى نهاياتها، أَشعر بأَنفاسي تتحرَّر أَكثر، وصدري يصبح أَشبه ببالون ضخم يتَّسع لكمٍّ هائل من الهواء، أَتنفَّس بعمق، أَشعر بالهواء يسري في كلِّ عضو في جسدي بحريَّة، الطَّعم نعناع، اللَّون أَقرب إلى الأَخضر، لون العالم، لكنَّه في الحقيقة مقلوب، متحرِّك، وبعده عن البؤرة لا يساوي بعده الحقيقيَّ عن المرآة.

حين كنتُ أَصف لنهرو ما كنتُ أَشعر به بعد تناول حبَّة الدَّواء كان يضحك.

- ربَّما رفاقنا السُّوفييت أَرسلوا لك مخدِّراً كي ترى العالم أَجمل.

هل كنتُ أَخرج من وعيي؟ من يدري؟ من بوسعه أَن يجزم ما الَّذي كنتُ أَفعله بعد أَن أَتناول حبَّة الدَّواء وأَغيب في ذلك العالم؟

في الصَّباح كنتُ أَجد البيت مقلوباً على عقب، كان أَصلاً مقلوباً، لكنَّني أَعني أَنَّني كنتُ أَجد نفسي في فوضى عارمة، كان البيت أَصلاً فوضى، لكنَّه يصبح فوضويَّاً أَكثر.

الصُّورة، صورة خالي الَّتي وجدتها أُمِّي ذات يوم منشورة في إحدى الصُّحف على رفِّ الجارة الخشبيِّ وأَطَّرتها، وجدتُها في الصَّباح قد سقطت على الأَرض، وتحطَّم زجاجها. لم أَفهم إن كانت قد سقطت ليلتذاك من تلقاء نفسها، أَم إنَّني أَنا من أَسقطتها بعد تناولي للدَّواء، قبضت عليها بأَصابعي، فردتها أَمامي، كانت تبدو بشكل مختلف تماماً، وجدتها أَجمل دون إطار، أَلصقتها على الجدار كما هي، وأَلقيتُ بالإطار وبقايا الزُّجاج إلى الخارج، شعرت بأَنَّ خالي ورفاقه المقاتلين أَصبحوا الآن أَكثر قدرة على التنفُّس من السَّابق، ربَّما كان الزُّجاج يخنقهم، قلتُ لنفسي.

كلُّ ما استطاع الدَّواء فعله بي، هو أَنَّ الأَشياء أَمامي أَصبحت أَكثر ثباتاً.

كنتُ في الماضي أَمدُّ يدي نحو الشَّيء فأَجده ينتقل إلى مكان آخر، أَعود لأَمدَّ يدي إليه فيهرب منِّي، كان الأَمر أَشبه بلعبة مقزِّزة، تجعلني غاضباً في كثير من الأَحيان، وتجبرني على أَن أُحاول القبض عليه بكلتا يديَّ وفي بعض الأَحيان إلى استعمال قدميَّ أَيضاً للسَّيطرة عليه.

كان ذلك يحدث معي في كثير من الأَحيان في المطبخ، أَو الحمَّام، أَو الصَّالة حيث أَجلس، مع الأَشياء الثَّابتة، أَمَّا الأَشياء المتحرِّكة، كحمامة، أَو فأر، أَو ذبابة، أَو شيء من هذا القبيل، فقد كان الإمساك بها أَشبه بالعبث.

-2-

أُحدِّق إلى صور الرِّفاق في السِّجن، وأَنا معهم، وأَسأَل نفسي: ما الَّذي يمكن أَن تقوله الصُّور؟ الصُّور في الحقيقة تكذب.

يقلقني أَفلاطون.

عبقريَّة الصُّورة تكمن في أَنَّها قادرة على الإمساك بلحظة زمن، تجميدها، لتعود إليها متى شئتَ، وتعيد استحضارها في ذهنك، الصُّور مجرَّد دليل، لكنَّها كذبة أَيضاً.

لكي تصل إلى المُثل عليك أَن تخلع صورها من رأسك، فلا يمكن للمثل وصورها أَن تجتمع في عقل واحد....لأَنَّهما ببساطة ضدَّان متنافران، أَحدهما ملموس، والآخر غير ملموس، أَحدهما في الزَّمن والآخر خارج الزَّمن، أَحدهما نراه، والآخر لا نراه تماماً، نشعر به، نحسُّ بوجوده، لكنَّ الحواسَّ لا تدركه.

فتحيَّة أَيضاً قبل أَن تموت كانت تعلِّق صورة زوجها أَبي عمر في صدر الدَّار، بشاربه الَّذي يشبه شارب هتلر، وكلَّما سألَها أَحد عنه كانت تدافع عن غيابه، تقول إنَّه سافر كي يحسِّن شروط الحياة، شروط المخيَّم، لم تكن تعلم أَنَّه سافر إلى الله، وأَنَّه مدفون في مقبرة الأَرقام.

في الصُّورة كان شبه مبتسم، وجهه ممتلئ، ينضح حيويَّة، وفي الواقع كان قد تحوَّل إلى كومة عظام في قبر يحمل رقماً فقط، ثمَّ بعد ذلك، بعد استشهاد عمر، ملأَت جدران البيت بصوره، بملصق نعيه.

ما علاقته هو، بعد أَن أَصبح عظاماً بصورته المعلَّقة على الجدار؟ هل تعنيه أَم تعنينا نحن فقط؟ هل هي ماضيه؟ وما علاقة الماضي بالحاضر، والمستقبل؟

قرَّرت أَن أَتبنَّى فتحيَّة من جديد، بعد سنوات من موتها، عدتُ لأَكتب مئتي رسالة أَرسلتها إلى كلِّ دول العالم، دولة دولة، جاهدتُ كثيراً حتَّى استطعت كتابة العناوين بلغة يفهمها ساعي البريد، والرَّسائل بلغة يفهمها البشر، حتَّى الدُّويلات الصَّغيرة لم أَنسها، والأُمم المتَّحدة، والفاتيكان، البابا في الفاتيكان، قلتُ فيها إنَّ حامد عبد الفتَّاح محمود عبد الجبَّار، زوج فتحيَّة، قُتل، قتله اليهود، وإنَّه مدفون في مقبرة أَرقام، وشرحت معنى مقبرة الأَرقام، وبيَّنتُ أَنَّها إهانة للموتى، وأَنَّها لا توجد في هذا العالم إلاَّ في "إسرائيل"، وشكَّكت بنوايا "إسرائيل" قلتُ إنَّني أَعتقد أَنَّها تقطِّع أَوصال الشُّهداء، وتحنِّطها، وتهدي جرحاها بعضها ليحتفظوا بها كتذكار، المقاتل العبريُّ الَّذي فقد يداً في الحرب يهدونه يداً محنَّطة لمقاتل عربيٍّ، ومن فقد قدماً، يهدونه قدماً، كوسام له، وهكذا... وطالبتُ بإخراج رفات أَبي عمر من قبره، ودفنه كما يليق بمقاتل.

إن كنتَ ترغب في أَن تدفن في فلسطين كمهجَّر، فسيدفنونك في مقبرة الأَرقام، كي تبقى مجهولاً إلى الأَبد.

تلقَّيت –وسط دهشتي– عشر رسائل كلُّها مقتضبة، تعزِّيني بمصابي.

في إحدى تلك الرَّسائل ثمَّة من قال لي إنَّ العالم كلَّه أَصبح مقبرة أَرقام، وأَرسل لي البابا شخصيَّاً تعازيه بحامد، ظنَّ أَنَّه أَبي، ربَّما كان الأَمر قد التبس عليه.

الصُّورة تخدعنا....

ذات يوم، ثلَّة من نشطاء طلاَّب جامعة اليرموك زاروني في البيت مع نهرو، أَخبروني أَنَّهم يفكِّرون بمناسبة 15 أَيَّار إحياء ذكرى النَّكبة، وأَنَّهم بحاجة إلى الصُّور الَّتي أَمتلكها لمذبحة دير ياسين كي ينظِّموا معرض صور بالمناسبة، فوافقتُ، وأَعطيتهم الصُّور، ثمَّ حين طلبوا منِّي أَن أُقدِّم بعض الشُّروحات حول الصُّور بصفتي خبيراً بالمجزرة لم أُمانع.

يومذاك تعرَّفتُ إلى نسرين.

كنتُ مسترسلاً في الشَّرح حين خَرجَتْ من بين جموع الطلاَّب الواقفين أَمامي يصغون بانتباه....انبرت فجأَة والغضب يعميها، انقضَّت على الصُّور وراحت تمزِّقها، وهي

تصرخ بي، وتشتمني، ثمَّ حوَّلَتها في أَقلِّ من دقيقة إلى مُزق متناثرة على الأَرض، رغم كلِّ محاولات بعض الطلاَّب السَّيطرة عليها، وإنقاذ ما يمكن إنقاذه منها....

لم أَشعر بالغضب....بقيتُ صامتاً أُحدِّق إليها.

ظننتُ في البداية أَنَّها من دير ياسين، وأَنَّ الصُّور قلَّبت مواجعها.

- أَفهم ما أَثارته الصُّور فيك من آلام وذكريات.
- في الحقيقة لم تثر فيَّ سوى الاشمئزاز والتقزُّز.

كان جوابها حادَّاً، موجعاً مثل رأس سكِّين مدبَّب، أَثار احتجاج بقيَّة الطَّلبة، حتَّى إنَّ بعضهم شتمها.

- هذه البنت مجنونة....قال أَحد الطلاَّب وهو يفرد كفَّه إلى جانب أُذنه اليمنى، ويهزُّها.
- أَنتَ المجنون...أَجابته.

راح بعض الطلاَّب يعتذرون لي....

- كيف تسمحين لنفسك بتمزيق الصُّور؟ وشتم الأُستاذ؟ أَتعرفين ماذا تعني هذه الصُّور بالنِّسبة "لإسرائيل"؟ قال آخر.
- أَعرف ماذا تعني بالنِّسبة لك...أَجابت بغضب.

خُيِّل إليَّ أَنَّها من شدَّة غضبها ستنفجر.

تدخَّل أَحد الأَساتذة...

- أَرجو أَن تهدئي قليلاً لنتفاهم، قال وهو يضع كفَّه على ظاهر كفِّها، وأَضاف متسائلاً: أَلا تعتقدين أَنَّ هذه الصُّور تفضح مجازر "إسرائيل"؟ وممارساتها أَمام البشريَّة؟
- أَين هي البشريَّة؟ تساءلت وهي تتلفَّتُ حولها.
- نحن جزء من البشريَّة...أَجاب.
- نحن طرف المعادلة الآخر، ولسنا البشريَّة.
- وهل يعني هذا أَن نتجاوز عن حقائق مروِّعة مورست ضدَّنا؟

- لا طبعاً، أَنا لم أَقل ذلك.

كانت قد أَصبحتْ أَكثر هدوءاً...

- لماذا علينا أَن نقيم كلَّ عام نُصباً للمجزرة؟ سأَلته.
- لنعلِّم أَبناءنا، لنخبرهم بما جرى.
- نحن لا نعلِّمهم، نحن نعيد إشباعهم بها، لا أَحد باعتقادي يقيم ملطمة كلَّ عام مرَّتين أَو ثلاث إلاَّ المهزوم.
- وهل نحن مهزومون؟ نحن نحارب في لبنان، وعلى كلِّ جبهة.
- سنصبح ذات يوم مهزومين.
- لماذا تعتقدين ذلك؟
- لأَنَّني أَرى صور ضحايا على هذا الجدار، ولا أَرى صور من قاوموا واستُشهدوا وهم يدافعون عن القرية كي لا يصبح الضَّحايا ضحايا.
- أَبوها شهيد...قالت رفيقة لها تقف إلى جانبها، وأَضافت:
- استُشهد في لبنان.

هزَّ الأُستاذ رأسه بأَسى، راح بعض الطَّلبة يتأَمَّلونها.

- العالم لا يُعطي أَوطاناً، قالت فجأَة وانسحبت، ثمَّ توقَّفت وكأَنَّها تذكَّرت شيئاً ما، أَدارت ظهرها ونظرت نحوي بالذَّات:
- حين أَشفق علينا العالم عاملنا كضحايا، وأَعطانا طحيناً، وخياماً، الأَوطان تؤخذ ولا تُعطى، عليك أَن تفهم هذا يا أُستاذ.

ربَّما آن الأَوان كي نخرج من البرواز....قلتُ لنفسي وأَنا أَتذكَّر نسرين وما فعلته حين رحتُ أُلصق صورة خالي ورفاقه على الجدار.

ربَّما آن الأَوان كي نخرج من صورة المعركة إلى المعركة، من صورة الوطن إلى الوطن، من رواية الرِّواية إلى الرِّواية، من صورة البيت ومفتاحه إلى البيت.

أَليس المفتاح صورة مشوَّهة للبيت؟

يقتلني أَفلاطون بمثله.

أَفلاطون الملعون كان يعي قبل آلاف السَّنوات ما سيحلُّ بي، كان يفهم أَنَّ تلك المسافة بين الصُّورة والأَصل صحراء قاحلة قادرة على ابتلاع شعوب بأَكملها، وأُمم، ولغات، وحضارات، وتاريخ، وذكريات.

بحثتُ عنها، عدتُ إلى الشَّخص ذاته الَّذي زارني يوم دعوني للمشاركة في ذلك المعرض، كنتُ أُريد أَن أُخبرها بما جرى لصورة عبد القادر الحسينيِّ، وبهجت أَبو غربيَّة، وخالي ياسين عبد القادر ياسين، وإحساسي الجديد تجاه الأَشياء، كنتُ أُريد أَن أَقول لها إِنَّني لستُ غاضباً منها، وإِنَّ تمزيقها للصُّور لا يزعجني، فأَنا على كلِّ حال، منذ اللَّحظة الأُولى شعرت بنفور من تلك الصُّور.

أَخبرني الشابُّ حين سأَلته عن بيتها، أَنَّها ماتت، استُشهدت، التحقت بأَبيها بعد ذلك المعرض بأَسابيع، سافرت إلى لبنان واستُشهدت في عمليَّة في نهاريا.

لماذا بكيتُها كما بكيت وأَنا أَدفن أُمِّي؟ لم أَكن قادراً على تفسير الأَمر أَبداً، لكنَّني، إكراماً لها، ولذكراها، اتَّفقتُ مع الشابِّ أَن نقيم معرض صور للشُّهداء يوم 15 أَيَّار القادم، وتكون هي، وأَبوها، وخالي ورفاقه، وزوج فتحيَّة، أَبو عمر، من بين الموجودين.

ربَّما أَضفته يومذاك هو بالذَّات كي أُحرِّره من مقبرة الأَرقام.

خُدعتُ مرَّتين: مرَّة يوم أَسقتني فتحيَّة بولها، ومرَّة يوم اعترف لي نهرو بأَنَّ الدَّواء ليس إلاَّ سكَّراً مطحوناً، ومعجوناً على هيئة دواء، وأَنَّ تلك الطَّريقة معروفة في الطبِّ باسم الشِّفاء بالإيحاء.

لم أُصدِّق كلامه....

كيف يمكن أَن يكون للدَّواء ذلك التأثير لمجرَّد الإيحاء؟

- يعني يخدع الإنسان نفسه؟
- يعني يخدع الإنسان نفسه، لذا كنتُ أَضحك حين كنتَ تخبرني بانفعالاتك، وتأثير الدَّواء عليك....
- هل أَنت من خدعني؟
- لا يا صديقي، الرِّفاق السُّوفييت هم من خدعوك، لكنَّك لا تستطيع أَن تسمِّي ذلك الأَمر خديعة، عليك أَن تفهم النَّوايا، وهي هنا مبرَّرة، اسمع، منذ أَعوام طويلة وأَنا متردِّد في طرح سؤال عليك، منذ أَن التقيتك أَوَّل مرَّة والسُّؤال يلحُّ عليَّ وأَنا أَتهرَّب منه....
- هل هو محرج إلى هذه الدَّرجة؟
- كثيراً...
- ما هو؟
- هل تعتقد أَنَّك ابن أُمِّك وأَبيك؟

ضحكتُ، ربَّما خطر الأَمر ببالي أَلف أَلف مرَّة وأَنا أَجترُّ حكايات أُمِّي عند السُّور، ورائحة الأُمومة.

- ما الفرق؟ ربَّما أَكون قد استخدمتُ الشِّفاء بالإيحاء دون وعي.
- أَتعرف؟ حين تبقى الرِّوايات غامضة تحافظ على نفسها مثيرة، طازجة، قابلة للحياة، خذ الفرق بين ألفس برسلي، وأَيِّ فنَّان آخر، أَو مارلين

مونرو وأَيَّة فنَّانة أُخرى، أَو حتَّى جون كينيدي، الرَّئيس الأَمريكيُّ الَّذي تمَّ اغتياله وظلَّت قصَّة موته معلَّقة، البعض يموت بغموض، لذا يبقى حاضراً، ونحن متنا هناك بغموض رغم رواية الشُّهود المتضاربة، هم كانوا يريدون أَن يبقى الأَمر كذلك، صدِّقني، كانوا يريدونه كذلك ومن أَجل ذلك بالذَّات يخفون أَرشيف دير ياسين، هذا ما أُفكِّر به منذ وقت.

هل أُصيب نهرو بمتلازمة دير ياسين أَيضاً؟

إعادة تمثيل الجريمة ليست جريمة، ولا يعاقب القانون عليها.

الصُّورة تجمِّد المشاعر، تجمِّد الوقتَ لكنَّها تجمِّد معه المشاعر، وتقفز فوق التَّفاصيل الكثيرة، وفوق الأَحاسيس.

الصُّورة ليست هي الأَصل....

يعذِّبني أَفلاطون.

أُريد أَن أَخرج من متلازمة دير ياسين، أَلاَّ أَشعر بأَعراضها، ولا أَجد طريقة لذلك.

أُريد أَن أَكتب شيئاً لدرور ابن حنَّا نوسين، أَن أُخبره بأَنَّ ولاءه هو ولاء لوطن مزيَّف، بُني على كذبة، على وهم، على جبال من العظام، وأَنَّه مريض مثلي، بنفس مرضي، يرى الأَشياء بطريقة تخدع وعيه، لكنِّي لا أَعرف كيف يمكن أَن تصله رسالتي.

أَنا مريض بدير ياسين....بمذبحة دير ياسين.

الذَّاكرة قد تصبح لعنة في لحظة ما.

أَحسد بعض السَّمك على ذاكرته الَّتي لا تمتدُّ لأَكثر من ثوان فقط.

حسدتُ رجلاً قرأتُ قصَّته ذات يوم في إحدى المجلاَّت على ذاكرته، كان مصاباً بفقدان ذاكرة غريب من نوعه، حين يغيب وجهك عنه ينسى أَنَّك كنتَ معه قبل لحظات، لذا، ما إن تدخل زوجته من المطبخ إلى الصَّالة حتَّى ينهض فرحاً برؤيتها، يفتح ذراعيه على اتِّساعهما ضاحكاً ويحضنها وكأَنَّها سقطت عليه من السَّماء.

كان في كلِّ مرَّة يراها يتصرَّف وكأَنَّه يراها بعد غياب طويل، واشتياق.

أَحسد الطِّفل على ذاكرته، فهو يُصاب بالدَّهشة مع تكرار شيء يحبُّه، كلَّما أَعاده يُصاب بالدَّهشة، ولا يملَّ من التِّكرار.

الذَّاكرة قد تصبح لعنة في لحظة ما.

أُحدِّق إلى ساق أُمِّي الخشبيَّة، منذ أَن ماتت، منذ سنوات، وأَنا ما زلتُ أَصحو على الصَّوت ذاته، صوت دعائها الَّذي لم تكن تحفظ سواه، وبعض آيات من سورة ياسين تقرؤها في الصَّلاة، وبكائها، حشرجتها في لحظة وبكائها، وهذه القدم وهي تدقُّ الأَرض، ولا تتوقَّف عن ذلك.

الوحدة قتلتني، حكمتُ على نفسي بالوحدة، لم أُفكِّر بالزَّواج قطُّ، بلغتُ الرَّابعة والثَّلاثين وأَنا أَعزب لا يفكِّر بالزَّواج، كنتُ في الحقيقة خائفاً من أَن يكون مصير زوجتي كمصير ياسمين، كنتُ خائفاً من المجزرة، من دير ياسين، وكانت زيارتها فكرة مرعبة، يوم أَخبرني جدِّي بأَنَّه سيطلب من جدَّتي أَن تستصدر لي تصريحاً لزيارة فلسطين.

كيف سأُواجه دير ياسين؟

كيف سأَقرؤها، سأَراها، سأَعيش فيها؟ ما الَّذي سأَقوله لها، وما الَّذي ستقوله لي؟

نحن من نؤسطر الأَشياء....نجترُّها ونرى ما نريد رؤيته منها فقط.
خمسة عشر عاماً وأَنا آكل من طعام الجارات...
كنَّ يُشفقن عليَّ...يعتبرنني ضحيَّة بشكل ما....ربَّما ضحيَّة نفسي...ربَّما كنَّ يُشفقن عليَّ لأَنِّي من بقايا دير ياسين، من أَيتامها، وربَّما كنَّ يعتبرنني مريضاً لا أَصلح للعمل، لذا كنَّ يشفقن عليَّ ويرسلن لي الطَّعام.
أَنا....بلا....عليَّ أَن أَعترف بذلك، عليَّ أَن أَعترف بأَنَّني نتاج الأَوَّل من نيسان، أَنَّني كذبة نيسان.
لماذا يكون اعتراف المرء قاسياً أَمام نفسه؟
لماذا نصرُّ على الإنكار؟
احتجت إلى سنوات طويلة كي أَفهم ما قام به رينيه ديكارت، وأَستوعِبُه.
قرأتُ ما قاله الدلالايما ذات يوم لأَحد تلاميذه: أَنتَ مليء بالآراء والتَّخمينات مثل كوب مليء بدأَ ينضح بما فيه من سائل، لكي ترى النُّور عليك أَن تفرِّغ رأسك المكتظَّ بالأَفكار.
كلُّ حياتي بدتْ في لحظة ما زائدة عن حاجتي، وكان عليَّ أَن أُعيد ترتيب الأُمور كما يجب، كان رأسي مكتظَّاً بالفعل.
العلاج بالإيحاء....ذلك بالضَّبط ما كان يلزمني.
لماذا لم أَقبض بكلِّ أَصابعي على نسرين؟ كنتُ أَفهم أَنِّي في لحظة ما أَحببتها حتَّى الموت، لكنِّي كنتُ أُنكر ذلك.
أَنا نتاج كذبة نيسان ها أَنا أَعترف.
فجأَة حين اصطدمت قدمي بأريكة ورحتُ أَتوجَّع اكتشفتُ الحلَّ، رحتُ أُلقي بأَثاث البيت إلى الخارج كالمجنون، إن كان ديكارت قد أَخرج كلَّ ما في رأسه ووضعه أَمامه على الطَّاولة ولم يبق سوى حقيقة واحدة مفادها أَنَّه هو الحقيقة الوحيدة في هذا الكون، وما دام هو الَّذي يفكِّر فهو إذن الموجود، ثمَّ أَعاد تمحيص كلِّ فكرة قبل أَن

يعيدها إلى رأسه، وأَلقى ما تبقَّى منها فوق الطَّاولة إلى سلَّة المهملات، فعليَّ أَنا أَيضاً أَن أَفعل ذلك.

رميتُ بكلِّ شيء إلى الخارج بلا أَسف، وتركت البيت فارغاً، وبقيتُ أَنا الحقيقة الوحيدة فيه....أَنا وصورة خالي مع عبد القادر الحسينيِّ، وبهجت أَبو غربيَّة بسلاحهم، حتَّى رجل أُمِّي الخشبيَّة تركتها في الخارج، حتَّى مصابيح الإضاءة، حتَّى ملابسي خلعتها وأَلقيت بها إلى الخارج من النَّافذة، عدتُ كما ولدتُ عارياً تماماً أَجلس في العتمة.

ما عاد ثمَّة إلاَّ أَنا والجدران في البيت، وحدنا، وصورة خالي ورفاقه بسلاحهم، والمفتاح.

- هل تعيد ترتيب أَثاث البيت؟ سأَلني أَحد الجيران.
- لا...أُعيد ترتيب نفسي في البيت.
- يعني لا تريد الأَثاث؟ سأَلتْ إحدى الجارات وعيناها تطفحان ترقُّباً ولهفة.
- لم أَعد أُريده.
- هل بوسعنا أَخذه؟ سأَل آخر متحمِّساً.
- بوسعكم أَن تأخذوا كلَّ شيء.
- تريد أَن تشتري أَثاثاً جديداً؟ سأَلت المرأَة.
- أُريد أَن أَشتري ياسيناً جديداً.

هل كانت إجاباتي مبهمة، تدلُّ على إجابات رجل مجنون؟

راحوا يتسابقون من أَجل الاستيلاء على قطع الأَثاث المبعثرة في الشَّارع، ووصل الأَمر حدَّ الشِّجار بينهم، ما استدعى تدخُّل بعض العقلاء كي يفضُّوا النِّزاع.

كان الرَّجل يصرخ في المرأَة، يخبرها أَنَّ بيتها مليء بالأَثاث، وأَنَّه لا مكان لديها لما ستستولي عليه، وهي تصرخ في وجهه قائلة إنَّ ذلك الأَمر لا يعنيه، وأَنَّها ستقوم بتخزين الزَّائد منه على سطح البيت.

ما كنتُ أُلقيه آنذاك إلى الشَّارع كان ياسين محمود حسن ياسين، بكلِّ ما كان يعنيه لي ياسين من آلام وأحلام وذكريات وسفالات وجوع وتشرُّد وشقاء ولجوء، ومجازر،

كنتُ أُلقي بالماضي كلِّه إلى قارعة الطَّريق كي أُطهِّر نفسي منه إلى الأَبد، وكان المفتاح المعلَّق على الجدار آخر ما انتبهتُ له، بقي هناك، وحيداً، يحدِّق إليَّ بحزن، اقتربتُ منه حين وقَعتْ عليه عيناي، نزعته من مكانه، وأَلقيت به إلى الخارج، رميته إلى الأَعلى، من فوق الجدار، من الحوش، وسمعتُ في سكون اللَّيل بعد أَن انفضَّت الجموع، سمعت صوته وهو يسقط مترنِّحاً على الأَرض، ويبكي.

لم أَستطع أَن أُوقف جماح نفسي وأَنا أَتذكَّر الأَطفال وهم يطيرون من فوق السُّور، أَمسكت بممحاة وهميَّة ورحتُ أَمسح الصُّور، أُريد أَن أُعيد تأثيث المشهد من جديد، ربَّما لو سمحوا لي في السِّجن إعادة وضع سيناريو مقنع للمسرحيَّة لما وصلتُ إلى هذا الحدِّ أَبداً.

في الصَّباح كانت ثمَّة صحفيَّة تدقُّ باب بيتي....كان نهرو قد فهم الرِّسالة وأَرسلها خصِّيصاً لتعتصر ما في رأسي.....لتفجِّر الورم فيه.

فوجئتْ بفراغ البيت، وعريي....أَغلقت عينيها في البداية بكفَّيها، ثمَّ عادت لتفتحهما، وتحدِّق إليَّ عارياً كما وُلدتُ تماماً.

- بوسعكِ أَن تقنعي نفسك بأَنِّي لستُ عارياً، بوسعك خداع وعيك، إنَّه العلاج بالإيحاء...ويمكن أَن ينقلب إلى الضدِّ، يصبح المرض بالإيحاء.
- أَنا أُسجِّل ما تقوله، هل ذلك مسموح؟
- لماذا سيكون ممنوعاً؟
- نهرو هو الَّذي أَرسلني إليك.
- عليك أَن تعلمي سلفاً أَنَّني لا أَملك شاياً ولا قهوة، ولا أَيَّ شيء للضِّيافة.
- لا بأس، لا أُريد شيئاً سوى ما تفكِّر به.

رحتُ أُفرِّغ ذلك الكبتَ الهائل الَّذي ظلَّ محشوراً داخلي منذ الأَوَّل من نيسان عام 1948.

أَغلقتُ على نفسي الباب بعد أَن خرجتْ، أَغلقتُ النَّوافذ، أَغلقتُ أُذنيَّ، كنتُ أُحاول استعادة نفسي من رواية أُمِّي، كنتُ أُحاول أَن أَكون أَنا.....كنتُ أُحاول أَن أَخرج من الإطار، أَتحرَّر.

فتحتُ النَّوافذ في اليوم الثَّالث، على فوضى المخيَّم، كان أَثاث البيوت ملقى يسدُّ الطُّرقات، كان المخيَّم قد فهم الرِّسالة، وبدأَ يتحرَّر حين قرأَ ما تناقلته الصَّحافة عمَّا فعلته، وعمَّا أُريد فعله، بعد أَن تبنَّاه بعض الشبَّان بتشجيع من نهرو، بدا الأَمر وباء لحظتذاك، ووصل الحدُّ ببعض المتحمَّسين إلى تناول المعاول والبدء بهدم البيوت.... كان المشهد سورياليَّاً، غريباً، لم أَر مثله من قبل.

- سنعود مشياً على الأَقدام كما حضرنا مشياً على الأَقدام...قالت امرأَة وهي تحمل طفلها الرَّضيع على ساعديها لجارتها.
- سنعود...قال شابٌّ لصديقه الواقف في الأَسفل، حين سأَله عن السَّبب الَّذي يدعوه لهدم البيت.

ثمَّة بائع صحف ظهر فجأَة داخل المشهد وهو يصرخ:

- مذبحة في صبرا، وشاتيلا، اقرأْ أَخبار المذبحة، رأي، دستور، رأَي، دستور، دستور.

كانوا قد أَغلقوا المخيَّمين تماماً، وقاموا بالمجزرة، وتضاربت الأَنباء حول تفاصيلها. فكَّرتُ وأَنا أُتابع صوته يبكي وهو يناول الصَّحيفة لشابٍّ راح يقرأُ للنَّاس الَّذين تجمهروا حوله ما فيها من أَخبار عن المجزرة: ربَّما سيضيف نهرو يوماً ما متلازمة "صبرا وشاتيلا" إلى متلازمة دير ياسين.

رغم ذلك سأَعود....قلتُ لنفسي وأَنا أَخرج إلى الشَّارع عارياً تماماً، تناولتُ قميصاً، وبنطالاً ولبستهما على عجل لأَستر عريي، قالت امرأَة عابرة وهي تحدِّق نحوي:

- عليك أَن تنتبه، ياسين، أَنتَ تلبس ثيابك بالمقلوب يا بنيَّ.
- وأَنت عليك أَن تنتبهي، يا خالتي، فأَنت أَيضاً تلبسين ثيابك بالمقلوب.

تركتها تحدِّق إلى ثوبها بدهشة، وتتفقَّده...ورحتُ أَغذُّ السَّير عائداً إلى فلسطين.